الباب الثانى

فى ذكر من أدارها " فـــــاس "

بالأسوار وذكر جوامعها وما انتهت إليه من الدور والحمامات وما جاء فى الثناء عليها وعلى ساكنها من العلماء الموضيين

قـــال لم تـــزل مديـــنة فاس كلاها الله تعالى من حين أسست دار فقه وعلم وصـــلاح ودين وهى قاعدة بلاد المغرب وفطرها ومركزها وقطبها وهى كانت دار الأدارســـة الحسنيين الذين اختطوها ودار مملكة زناتة وغيرهم من ملوك المغرب فى الإســـلام ونزلها لمتونة فى أول ظهورهم على المغرب ثم بنوا مدينة مراكش فأنتقلوا إليهـــا لقرب بلاد الصحراء ثم أتوا الموحدون بعدهم وأتخذوا دار ملكهم لقربها من بلادهـــم ولكونها فى جوارهم وبين قبائلهم كما قاله صاحب المقياس وغيره ومازال الأمراء والملوك فى أثناء ذلك يزيدون البناء بفاس إلى أن صار الناس يبنون بأرباض المدينـــتين واتصـــلت العمارات من كل جهة إلى إنقراض أيام زناته فأراد منهـــم دونـــاس[1] بن حمامة بن المعز بن عطية بن زيد الأسوار على جميع أرباضيها من كل

---

(1) هو أمير فاس وابن أميرها من قبيلة "مغراوة" من زناتة ، ولى فأساً وأحوازها بعد موت أبيـــه سنة ٤٤٠ هـــ وكانت أيامه أيام هدنة ورخاء وفى زمنه عظمت فاس وعمرت وقصدها الناس والتجار من جميع النواحى وأدار الأسوار على أرباضها، وبنى المساجد والحمامـــات والفنادق فيها، فصارت حاضرة المغرب، ولم يشغل من يوم ولى الإ =

جهـــة وبنى بها المساجد والفنادق والحمامات وغير ذلك وصارت مدينة واحدة إلى أن ولى بعـــده أبناء الفتوح وعجيسة فحصن الفتوح عدوه الأندلس وبنى بها قصبة لســـكناه بالموضـــع المعروف بالكدان وفتح باباً فى العدوة سماه بأسمه وخص أيضاً عجيســـة عدوة القرويين وبنى بها قصبة لسكناه بعقبة الصعتر وفتح هناك باباً سماه بأسمـــه وكـــانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما، وكان القتال بينهما فى الموضع المعروف بكهف الوفادين وكثر العرج بسبب ذلك فى أرض المغرب وأشتد الغلاء إلى أن ظهر لمتونة بأطراف المغرب وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله ولما ظفر بـــه كره أن يبقى الباب وأمر بتغيير ذلك وترك أضافتها أيد الله ملكها خرج سور الرميـــلة فى قســـط اليهود لعنهم الله وأشتهر ذلك بينهم فلما تهدمت هذه القنطرة أشاع اليهود أن بناءها عليهم حسبما عليهم حفارة السور ليغتنموا أن يكون أثرها عـــليهم وليحرموا المسلمين من أجرها ولم يستطع اليهود بالمبادرة لبنائها وقبح على الأمـــراء أن يكلفوهم بناءها خوف أن يبقى أثرها لهم فأهل النظر فيها بسبب ذلك كـــل ذلـــك تلقيـــناه من جملة شيوخ فاس وما زال كبير لمتونه وأميرها يوسف بن تاشـــفين[1] فى زيارة المساجد وسقاياتها وحماماتها وخاناتها إليه فأسقط الناس حرف

= بالبناء ، إلى أن توفى فيها سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م .

انظر المزيد فى : جذوة الاقتباس ١٢١، التعريف بابن خلدون ٤٥٠ .

(١) هـــو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المصالى الصنهاجى اللمتونى الحميرى أبو يعقوب أمير المســـلمين وملك الملثمين سلطان المغرب الأقصى وبانى مدينة مراكش، وأول من دعى بـــأمير المسلمين. ولد فى صحراء المغرب سنة ٤١٠ هـ /١٠١٩ م ، وولاه ابن عمه أبـــو بكر بن عمر اللمتونى إمارة البربر وبايعه أشياخ المرابطين وجال جوله فى المغرب بجيش كبير فوقى أمره ، واستولى على مدينة فاس وغزا الأندلس، فصالحه ملوكها على الطاعة له ، واستخلفه أبو بكر بن عمر على المغرب سنة ٤٦٣هـ ، فأستقل به ، =

العين من عجيسة وأدخلوا عوضاً عنها الألف واللام فقالوا باب الجيسة وبقى ذلك إلى الآن وبعـــد أن طفـــر بأخيه أتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه وتخلى عن المدينة ووليهـــا معنصـــر ابن عمه إلى أن دخلوها لمتونه وقتلوا زناتة وفى أيام لمتونة هدمت الأســـوار الـــتى بأعلى الوادى الكبير بقرب حوض السفرجل والسور الذى أسفله حيـــث هـــى الرميلة الذى كان بناه دوناس حين أدار الأسوار على سائر أرباضها وجعـــل فى ذلـــك أقواســـاً بشباييك من خشب الأرز بالعمل المحكم لدخول الماء

= وبنى مدينة مراكش سنة ٤٦٥ هـــ وكتب إليه المعتمد بن عباد سنة ٤٧٥ هـــ من إشبيلية، يستنجده على قتال الفرنج، فوصف بجموعه فكانت " وقعة الزلاقة " المشهورة الـــتى انكســـر فيها جيش الفرنج الزاحف من طليطلة كسره شديدة سنة ٤٧٩ هـــ وبايعه بعد إنتهاء الوقعة من شهدها معه من ملوك الأندلس وأمرائها وكانوا ثلاثة عشر مـــلكاً، فســـلموا عليه بأمير المسلمين وكان يدعى بالأمير وضرب السكة من يومئذ وجددهـــا ونقش دينار ه " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وتحت ذلك " أمير المسلمين يوسف بن تاشفين" وكتب فى الدائرة : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وكتب فى الصفحة الأخرى " الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسى" وفى الدائرة تاريخ ضرب الدينار وموضع سكه . وعاد إلى مراكش وهو على اتصـــال بإشبيلية وغيرها . ثم لم يلبث أن سير الجيوش إلى الأندلس ودخل غرناطة (فى السنة نفسها) وفيها آخر الصنهاجين " عبد الله بن بلكين " فامتلكها وأخذ ابن بلكين معه إلى مراكش واستولى قائد جيشه "شير بن أبى بكر " على مرسيه وشاطبة ودانية ثم بلنســـية وإشبيلية وبطليوس فتم له ملك الجزيرة كلها وشمل سلطانه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس وتوفى بمراكش سنة ٥٠٠ هـــ / ١١٠٦ م . وكان حازماً ضابطاً لمصالح مملكته، ماضى العزيمة ، معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم ، خفيف العارضين، دقيق الصوت ، يخطب لبنى العباس .

انظر المزيد فى : الأنيس المطرب ٥ ، الكامل ٩/ ٢١٦، ١٠/١٤٥ ، جذوة الاقتباس ٣٤٢ ، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٤٠٣ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٥ .

وخـــروجه وكـــان جعل بين العدوتين قناطر للمجاز لمن فى كل عدوة إلى الأخرى، الأولى قـــنطرة أبى طوبـــة التى جددها الأمير أبو سعيد عثمان[1] رحمه الله . والثانية قـــنطرة أبى بـــرقوقة . والثالـــثة قنطرة باب السلسلة . والرابعة قنطرة الصباغين . والخامســـة قـــنطرة كهف الوفادين . والسادسة قنطرة الرميلة وحين جاء السيل العظـــيم سنة خمس وعشرين وسبعمائة حمل قنطرة السلســـــــلة وما بعدها فأمر أمير المؤمنين أبو سعيد عثمان ببناء قنطرة الصباغين وقنطرة باب فبنيتا على حالتهما الآن وبـــنيت قنطرة الوفادين على يد من تطوع بذلك من المسلمين وبنيت قنطرة الرميلة إلى الان، وأرجو من الله أن يكون أذخرها لهذا الملك المبارك السعيد وجعلها مـــن حســـناته التى يبقى أثرها ويضاعف أجرها فأنها من الحسنات الطويلة الأمتاع الكـــثيرة الانتفاع وسبب أهمال الأمراء لبنائها إلى أسوار المدينة لما رتب فيها الحفار والســـمار فى أيـــام المخالفـــة وأول هذه الدولة المرينية وإصلاح أمورها وأقدم من قرطـــبة جملة من صناع فبينوا منها كثيراً إلى أن إنتهت إلى ما يذكر بعد أن شاء الله تعالى وفى أيامه صارت العدوتان قطراً واحداً وفى أيام ولده على بنى سور الفوراجة الـــتى بين باب الجيسة وباب اصليتن على يد قاضيه عبد الحق بن معيشة بمال وظفه عـــلى أهل فاس حسبما ذكره صاحب المقياس . وفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

---

(١) هـــو عثمان بن أحمد بن إبراهيم بن على من بنى عبد الحق أبو سعيد المرينى من ملوك الدولـــة المريـــنية فى المغرب وهو ثالث أفخوة الأشقاء من أبناء أحمد بن إبراهيم الذين تولـــوا المـــلك مـــن بعده . بويع بفاس بعد وفاة أخيه عبد الله سنة ٨٠٠ هـــ وكان التصـــرف فى دولته للوزراء والحجاب وفى سنة أيامه استولى البرتغال على مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـــ بعد حصار طويل وازداد ضعف الدولة المرينية، واستمر أبو سعيد إلى أن قتله وزيره عبد العزيز اللبانى .

انظر : جذوة الاقتباس ٢٨٩ ، الاستقصا ٢/ ١٤٤ ، الضوء اللامع ٥/ ١٢٤ .

أمـــر الأمير عبد المؤمن بن على[1] بهدم أكثر الأسوار كذلك إلى أن بدا ببناء ما هـــدم يعقـــوب المنصور وكمله ولده أبو عبد الله الناصر وأقام ببناء القصبة التى بالوادى واتفق أهل السلوك الذين دخلوا مصانع الملوك سائر الأقاليم أنه لا نظير لها لأجل الوادى الذى يشقها وكذلك بنى باب الشريعة على حالها الآن كما بنى أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام الـــبرج العظـــيم الذى هناك وكتب فيه أسمه وبفاس الآن من الأبواب باب الفتوح وبـــاب الخوخة وباب بنى مسافر وباب الجيسة وباب المصلتين وباب الشريعة وهى بـــاب يدخلها الفارس بالعلم العالى والرامح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح لارتفاعها وسميت باب المحروق من أجل العبيدى القائم بجبال وزان لما ظفر به وقتل وعلق راسه على باب الشريعة المذكورة واحرق جسده فى وسطها وذلك يوم ركـــبت مصـــاريعها بأمر أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور سنة ستمائة وباب المطمر المتصلة من أبوابها بالقصبة وباب الوادى التى هى لدخول الخلفاء وخروجهم المتصـــلة أيضاً بالقصبة وباب الحديد وباب الزيتون بن عطية وباب الجيزيين المفتوح مـــنها خمســـة وســـائرها غلق فى أيام المجاعة وإنتهت مدينة فاس فى أيام المرابطين والموحديـــن من بعدهم من الغيطة والوفاهية والدقة والأمن والعافية مالم تبلغه مدينة مـــن مـــدن المغرب لا سيما فى زمن المنصور الموحدى وولده محمد الناصر وكانت

---

(١) هـــو عـــبد المؤمن بن على بن مخلوف بن يعلى بن مرورك أبو محمد الكومى أمير المؤمنين مؤســـس دولة الموحدين المؤمنية فى المغرب والوريفية بتونس. نسبته إلى كوميه (من قبائل البربر) ولد فى سنة ٤٨٧ هـــ/ ١٠٩٤ م ، ومات سنة ٥٥٨ هـــ / ١١٦٣ م. انظر المزيد فى : الاستقصا ١/ ١٣٩ ، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٢٩ ، الكامـــــل ٢٠١/١٠ ، ٢٠٩/١١ ، الحلل الموشيه ١٠٧ – ١١١ ، الخلاصة النقية ٥٥، جذوة الاقتباس ٢٧٢ .

المساجد بها سبعمائة وخمسة وثمانين ودور الوضوء أثنتين وأربعين وسبعين ودور السكنى تسعاً وثمانين ألفاً ومائتين وستة وثلاثين والمصارى سبعة والحوانيت تسعة آلاف وأثنتين وثمانين وقيسارية واحدة فى كل عدوة منها ودار السكة واحدة فى كل عدوة منها والأطرزة ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ودور عمل الصابون سبعاً وأربعين ودور الدباغين ستاً وثمانين ودور الصناع مائة وستة عشر ودور تسبيك الحديد والنحاس أثنى عشر ودور عمل الزجاج غحدى عشرة وكوش الجير مائة وخمساً وثلاثين وأفران الخبز ألفاً ومائة وسبعين وأحجار عمل الكاغيد أربعمائة كل ذلك بداخل المدينة ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة نقل عن المشرف على ابن عمر الأوسى قال نقلته من خط ..... * مشرق المدينة فى أيام الناصر بن المنصور ..... ولو مر بالمدينة البيضاء والملاخ وما هو إلى ذلك من الكهوف مقيم الآن بفاس لكانت تنتهى لأكثر من ذلك والله أعلم . وكان إذ ذاك بجنبى الوادى الكبير من حيث يبتدئ دخوله إليها إلى أن يخرج منها دار الصباغين وحوانيتهم ودور الدباغ والصابون وحوانيت الخنافين والقصابين والسفاجين والمواضع المعدة لطبخ الغزل والفوالين وغيرهم ممن يحتاج إلى الماء وفى أعلا ذلك اطرزة للحاكة ولم يكن بالمدينة واد يظهر للناس حاشا الوادى الكبير وباقى أنهارها يبنى عليها الحوانيت والدور والمصارى ولم يكن بداخلها بستان ولا رياض عداً زيتون بن عطية وخرب أكثر ذلك فى أيام المجاعة والفتنة التى كانت فى أيام العادل وأخيه المأمون وذلك عشرون سنة إلى أن ظهرت الدولة المرينية أطال الله بقاءها فأنجبرت البلاد وتأمنت الطرق والعباد .

---

* بياض فى الأصل .

بناء جامعى
القرويين والأندلس

وأمـــا بناء جامعى القرويين والأندلس وذكر الزيادة فيهما إلى هذا الوقت والحـــين فذكر أبو القاسم جنون وغيره فى تاريخ فاس أنه لما كثر الوارد ون عليهما فى أيـــام يحيى بن محمد بن إدريس [1] كان ممن قدم عليهـــــا من القيروان محمد بن عبد الله الفهرى القروى ونزل بعدة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه فمات وتـــرك بنـــتين وهما فاطمة المدعوة بأم البنين ومريم وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا أن تصرفاه فى وجوه من البر فعلمتا أن الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير فى كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس فشرعت فاطمة فى بناء جامع عدوة القرويين ومريم فى بناء جامع الأندلس .

---

(١) هـــو يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسنى ملك من الأدارسة أصحاب مراكش كانت عاصمته فاس ولى بعد وفاة أخية على سنة ٢٣٤ هـــ بعهد منه وحسنت سيرته وكـــان محـــباً لـــلعمران ، بنى بفاس حمامات وفنادق وأقبل أهلها على البناء فى عهده وقصـــدت من الأندلس وإفريقية وسائر بلاد المغرب، فضاقت بسكانها، فبنيت الأرباض "الضواحى" بخارجها .وفى أيامه بنى جامع القرويين توفى بفاس سنة ٢٥٠ هـــ / ٨٦٤م. انظـــــر المزيد فى : الاستقصا ١/ ٧٦ ، جذوة الاقتباس ٣٣٤ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥ ، الأنيس المطرب القرطاس ٨ .

جامع القرويين

أمـــا جامع القرويين فكان الشروع فى حفر أساسها والأخذ فى أمور بنائها يـــوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين وكان موضعه الـــذى بنى فيه أرض لعمل الخضر وفيه أشجار لرجل من هوارة كان قد جاز ذلك أبـــوه بوجـــه صحيح اسست المدينة فأشترتها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها من إرثها من أبيها وتطوعت ببناء الجامع المذكور فحضر فى أرضه وأخذ منتها التراب والكدان لبنائه وحفر بها بئر لأخذ الماء لبنائه ونصبت قبلته على نحـــو قبلة جامع الشرفاء الذى أسسه الإمام إدريس رضى الله عنه بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم فى ذلك وبنى من أربع بلاطات من قبلة الوجوه فى كل بلاط أثنى عشـــر قوســـاً مـــن شرق على غرب وجعل محاربه بمقدار البلاط الذى أمام الثريا الكبرى الآن وجعل مؤخرة صحن صغير بمؤخرة صومعة حيث العنزة الآن وتم على نحو ما اراته وذلك بمطالعة الأمير يحيى ثم صلت فيه وشكرت الله تعلى الذى وفقها لذلـــك ولم يـــزل على نحو ما بنى فى أيام الأدارسة إلى أن كثرت العمارات واتصل البـــناء فى أربـــاض المدينة من سائر الجهات وجرى زناتة بأرض المغرب سنة سبعة وثلاثمائة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكـــبره وصـــنع له منبر من خشب الصنوبر، وكان أول خطيب خطب به الشيخ الصـــالح أبـــو عبد الله محمد بن على الفارسى، وقيل سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وأن الـــذى أقام الخطبة إذ ذاك هو الأمير حامد بن أحمد الهمدانى [1] عامل عبيد الله

---

[1] ورد ذكره فى اتعاظ الحنفا للمقريزى .

الشـــيعى عـــلى بعـــض بلاد المغرب بعد إن كان تغلب عليها مصالة بن حبوس[1] القـــائم بدعوة الشيعى على بعض بلاد المغرب، ولم يزل ذلك على أن تقوى ظهور زناتـــة بالمغـــرب لاستدعاء الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ملك بر الأندلس لكبرائهم ورؤسائهم وبانتشار وصاياه ووصله الأخبار منهم ولهم ومهاداتهم واكرام ســـاداتهم وقضـــى ما فاتهم وحيل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ممراً لمن عجز رجالـــه فويا لمن ضعف بماله إلىأن هدت إليه افئدة كثير منهم بين مصحح فى ولايته ومســـتجيب لدعوتـــه ومغتنم لعطيته مستعين بقوته على مدافعه من قاهر ركنه من الأدارسة والشيعة فقام زناتة بدعوة الناصر لدين الله وتغلبوا على بعض بلاد المغرب وبايعـــه أهل مدينة فاس فى من بايعه حسبما ذكره صاحب المقتبس[2] فولى عليهم عـــاملاً له من زناتة يعرف بأحمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي سعيد الزناتى وكان من

---

(١) هو مصالة بن حبوس المكناسى أمير بربرى ، كانت له رياسة " مكناسة" القبيلة وبلادها، فى الشطر الثانى من المائة الثالثة الهجرية، وعظم أمرها فى أيامه فتغلبت على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكاى ولما استولى عبيد الله المهدى على المغرب الأوسط وزحف مصالة إلى المغـــرب الأقصى سنة ٣٠٥ هـــ واستولى على فاس وعلى سجلماسة واستزل يحيى ابن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد الله وأبقاه أميراً على فاس. وعقد لابن عمه موســـى بن أبي العافية أمير بلدة مكناس على سائر ضواحى المغرب وأمصاره وقفل إلى القيروان فقتله محمد بن خزر الزناتى سنة ٣١٢ هـــ / ٩٢٤ م .

انظر المزيد فى : تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٤ ، البيان المغرب ١/ ١٩٧ .

(٢) هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموى بالولاء أبو مروان مؤرخ بحاث من أهل قرطبة كان صاحب لواء التاريخ فى الأندلس أفصح الناس بالتكلم فيه وأحسنهم تنسيقاً له . من كتبه " المقتبس فى تاريخ الأندلس " ولد سنة ٣٧٧ هـــ / ٩٨٧ م ، ومات ٤٦٩ هـــ / ١٠٧٦ م .

انظر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ١٦٨ ، جذوة المقتبس ١٨٨ .

أهــل الفضل والدين فكتب إلى الناصر ليستأذنه فى بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس لذلك فأذن له وبعث له بمال كثير من أخماس غنائم الروم وأمره أن يصـــرفه فيه فأصلحه وزاد فيه أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة مـــن الجـــوف فى موضع الصحن الذى كان فيه بلاط واحد بعد أن هدم الصومعة الـــتى كانت به لكونها متطاولة الأشراف وبناها وهى الصومعة التى بالجامع الآن .

ولمـــا شرع فى بنائها جعل سعة كل وجه منها أحد وعشرين شبرا ويصعد لها على مائة درجة ودرجة وجعل بابها من جهة القبلة وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الأصـــفر وتم العمل فى بنائها على يد أحمد بن ابى بكر الزناتى فى شهر ربيع الأول مـــن ســـنة خمـــس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب فى التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل فى أعلاها قبة صغيرة ووضع فى دورانها تفافيح مموهة بالذهب فى زج مـــن حديد وركب فى الزج المذكور سيف الإمام إدريس بن إدريس رحمه الله الذى أسس المدينة وسبب جعله هنالك أن الأمير أحمد بن أبى بكر المذكور، ولما فرغ من بنائها اختصم إليه بعض حضرة الإمام إدريس فى السيف المذكور وطلب كل واحد منهم أن يمتاز به ويحوزه لنفسه وطال النزاع فيه قالوا وما تصنع به إذا تركناه لك . فقـــال لهم أجعله فى أعلا المنارة تباركاً به وليكون لكم ذكر بسببه فقالوا قد وهبناه لـــك من طيب أنفسنا فجعله فى دوره الصومعة وجعل تحت القبة المذكورة قبة أكبر مـــنها الجـــلوس المؤذنين لا شاعة الأذان فى أوقاته وكان فيها بيت الراعى منهم لاوقات الليل واتصداع الفجر إقامة الأذان وبنائه يقتدى المؤذنون بصوامع المدينة يخلدونه على العادة المتنقلة من قديم الزمان ولهم بمواضع منها بلاطة رخام موضوعة هـــنالك بالحكمـــة وفى وسط كل بلاطة قائم يستدل بصدود ظله على خطوط فى الـــبلاطة بطـــول أزمان النهار ومرور ساعته وقد نصبها أهل العلم بالهيئة عن نظر وموافقة وهى لهم فى أفضل الهدايات وفى عطفات أدراجها سرج زاهرة الضياء يمر

عليها الليل كله يستعان بها أيضاً لرعى الفجر واجزاء الليل ولم تزل كذلك إلى أن ولى القضاء بالمدينة الفقيه الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبى الصبر أيوب بن كنون . فعمل فى أيامه المعدل أبو عبد الله محمد بن الحباك بدنا من الفخار بالقبة العليا فيه الماء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقات يخرج منه الماء بقدر معلوم إلى أن يصل الخطوط ، فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار فى أيام الغيم ولياليها وذلك فى سنة خمس وثمانين وستمائة ثم غفل عنه وأهمل .

وفى السنة المذكورة شرع فى إصلاح الصومعة المذكورة وتبيضها بالحض والجير بعد أن سمر فيها من خارجها ثلاثة قناطير وربع قنطار ونصف ربع قنطار من مسامير الحديد ودلكت بعد تبيضها حتى صارت كالمرأة المسفولة بعد إن كان الطير على الصحن وانتقل إليها بيت المرعى للأوقاف وجلوس القومة بها .

وأما المبخانة التى صنعت فى هذه الغرفة لمعرفة الأوقات فإن الشيخ المعدل أبو عبد الله محمد الصنهاجى أحدثها هنالك ورسمها له أبو عبد الله محمد بن الصدينية الفرسطونى وتطوع بعض المسلمين بالأنفاق فيها سنة سبع عشرة وسبعمائة وذلك أنه جعل فى ركن الغرفة عن يسار المستقبل مجناً من خشب الأرز وجعل فى داخله بدنين كبيرين من فخار أحدهما أعلى من الأخر وجعل الماء فى الأعلى منهما وبأسفله أنبوب من نحاس محكم العمل يهبط منه الماء فى البدن الأسفل بقدر معلوم وجعل فى طرف الجنح مفطساً وجعل فى جانبى التفطيسة مرسوماً فيهما أيضاً الساعات ودفائقها وأوقات الليل والنهار وجعل المسطرة معلقة فى [1] .... خارجاً من الجنح يجرى فى حفر التفطيسة طالعاً وهابطاً وجعل على وجه الماء الذى يجتمع فى البدن الأسفل حسبما مجوفاً من نحاس على هيئة الأطرقة

---

(1) بياض فى الأصل .

معـــلقاً فى الطرف الداخلى على العلو فغذا طلع الجسم بطلوع الماء الذى يجتمع فى البدن الأسفل طلع طرف [1] .... الخارج من الطفيسة وطلعت بطلوعه المسطرة كمـــا كانت ثم غفل عنها وأشملت إلى أن تقدم للنظر فى الأوقات أبو عبد الله محمد ابـــن العربى سنة سبع وأربعين وسبعمائة فجدد المجانة على وجه الاتقان أفضل من الأول ولم يـــزل يجـــتهد فى ذلـــك إلى صـــدر إيالة مولانا أبى عنان رحمه الله فأكثر الاجـــتهاد فى خدمته وجعل خارج الجنح المذكور قبلة المستقبل دائرة وعليها شبكة الأســـطرلاب ورسومه تدور ومتى طلعت المسطرة المذكورة يعرف بها أيضاً أوقات الـــليل والنهار وأعد هناك مع ذلك رمليات لاختبار الأوقات وجملة الاسطرلابات فوقف ذلك على من ينظر فيه أجزاء الليل والنهار وصعد مولانا أبو عنان رحمه الله الصومعة ليعتبر فى المدينة وترتيبها ووقف المجانة وما أتصل بها فأستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتبة وسع الله عليه ليستعين به على القيام بشرائع الإسلام وذلك فى ســـنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وأمر بأثر ذلك أن تجعل بأعلا الصومعة المذكورة صارية ينشر فيها علام فى أوقات صلاة النهار فنار فيه سراج زاهر الأوقات صلاة الـــليل ليســـتدل بذلك من بعد عن المدينة ولم يسمع النداء وفى ذلك اعتناء بأمور الأوقـــات وبمـــا يتعلق بها من وجوب الصلاة وما يترتب عليها من الحقوق ووجوه العادات والعبادات . ها أبيـــــات فى ذلك :

نور به علم الإيمان مرتفـــــــع ... للمهتدين به للحق من بشـــــر
يأتون من كل أوب نحوه ولهـــــم ... مبينا لا نسلاخ الليل عن نهـــار
روح من الماء فى جسم من الصفر ... مولد بلطيف الحسن والنظـــــر

---

[1] بياض فى الأصـــــــــــل .

مستعبر لم يقف عن عينه أبـــدا ولم يبت من ذوى ضغن على حذر
وفى أعاليه حسبان يفصـــــله للناظرين بلا ذهن ولا فكـــر
إذا بكى دار فى احشـــائه فلك حنا فى المسير وإن لم يبك لم يدر
مترجم عن مواقيت يخبرنـــــا بها فيوجد فيها صادق الخبـــر
تقضى به الخمس فى وقت الوجوب وإن غطى على الشمس ستر الغيم والمطر
وإن سهرت الأوقات تورفنـــــا عرفت مقدار وقت السمر والســهر
محدد كل ميقـــــات تخيره ذوو التمييز للأسفار الحضـــر
مخرج لك بالأجزاء ألطفهـــا من النهار فوت الليل والسحر
نتيجة العلم والأفكار صـــورة يا حبذا أبدع الأفكار فى الصور

وقـد صـنع أبو عنان رحمه الله مجانة بطيسان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسـته الجديـدة التى أحدثها بسوق القصر من فاس وجعل شعار كل ساعة أن تسـقط صـنجة فى طاس وتنفتح طاق وذلك فى أيام آخرها الرابع عشر لجمادى الأولى مـن عـام ثمانيـة وخمسين وسبعمائة على يد موفقته الحسن على بن أحمد التلمسانى المعدل .

وأمـا القبة التى بأعلى العتره فإنه لما تغلب المظفر بن المنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد على بدينه فاس بعد مناوشته سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بنى القبة المذكـورة ونصـب أعلاها طلسمات وتماثيل كانت قبل ذلك على رأس القبة التى كـانت باطلاً المحراب الأول بالجامع المذكور مما صنعه الأوائل ومنه ما صنع فى أيام الشيعة فجعل الطلمسات على أعمدة من حديد منها طلسم الفأر على صورة الفأر فكان الفأر لا يدخلها أبداً ولا يعشش فيها وإن دخلها أفتضح وقتل، ومنها طلسم العقـرب وهـو على صورة طائر فى سقاره شبه ذنب العقرب فكانت العقارب لا تدخـلها أبـداً وإن دخلت أفتضحت وإن دخلت فى ثوب أحد خمدت لا تتحرك

وفيهـــا طلســـم فى طفافيح من نحاس للحية فلا تدخلها حيه وإن دخلت أفتضحت وقتلت وما يوجد فيه من الحيات فهى من عمار الجن وهذا لا ينكر لأن الله سبحانه وتعـــالى أجرى عادته فى ارتباط بعض الأشياء ببعضها إذا كانت فى وقت مخصوص ولا يعلم قط على قديم الزمان وحديثه من لدغته عقرب ولا حية وقد تعطل ذلك كلـــه مـــنذ أعوام { وسنين * } والبيله المستطيلة عن يسار الخارج من باب الجفاة الجوفية فإن المظفر بناهما وجلب الماء إليهما من وادى حسن الذى بأعلا المدينة من ناحيـــة باب الحديد وأما الذى صنعه المظفر بن المنصور [1] بعد المنبر الذى صنع فى أول ظهور زنانة فكان من عود الأبص والعناب وغيرهما وكان مكتوباً عليه :

---

* إضافـــة من عندنـــــا .

(1) هـــو عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى أبو مروان ثانى أمراء الأندلس من الأسرة العامرية. كان فى أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه فى الحجابة للمؤيد الأموى (هشـــام بن الحكم) بقرطبة ثم كان مع أبيه فى غزوته التى مات بها (فى مدينة سالم) ولما شعر أبوه بدنوّ أجله رده إلى قرطبة وأوصاه بضبطها فأسرع إليها وجاء نعى أبيه ، فدخل على المؤيد فأخـــبره ، فخلع عليه وكتب له بولاية الحجابة مكان أبيه سنة ٣٩٢ هـــ . فقام بأمور الدولة كبيرها وصغيرها وأسقط عن البلاد سدس الجباية، وتلقب بسيف الدولة " الملك المظفر بالله " وعاد المؤيد إلى انزوائه . أحبه أهل الأندلس وأزدهرت البلاد فى عهده حتى قالوا عنه : إنـــه " لم يولد بالأندلس مولود اسعد منه على أبيه وعلى نفسه وحاشيته وبلاده " وكان أشد الناس حيـــاءاً ، فعنـــدما دخل الحرب فهو أسد ، حطماً وشدة وكان داهية حازماً ولى الحجابة ـــ بل الإمارة أو السلطة المطلقة ـــ وملوك الإفرنج يرتقبون الخلاص من أبيه ، ويتحفزون لنقض ما كان بينهم وبينه من مسالمة فى الثغـــــور، فجهز الجيوش وقاتل من قاتله ، فهابوه وحضر أحدهـــم شانجـــــه Sanche III Le Gland إلى قرطبة مسالماً سنة ٣٩٤ هـــ فأصـــطحبه عبد الملك معه فى اقتحامه جليقـــه Galuce وظل على المسالمة بعد ذلك باســـتعداده لحربه ، فسابقه بالغزو سنة ٣٩٧ هـــ وقهره وعاد إلى قرطبة. وكان قليل بضاعة العلم، فلـــم يكن للأدب فى أيامه ما كان له فى أيام أبيه . وقال ابن حيان : كان مـــائلاً إلى=

" بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم هذا ما أمر به الخليفة المنصور سيف الإسلام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقاؤه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر وفقهم الله تعالى " وذلك في ثمان وثمانين وثلاثمائة فكان يخطب عليه على أيام علي بن يوسف بن تاشفين فترك صنع الذي بها الآن على يد قاضيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي ولم يتم في ايامه وتم بعد صرفه عن قضاء فاس على يد القاضي بعده أبي مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي وصنع من عود الصندل والأبنوس والتاريخ والعناب وعظم العاج والذي صنعه ونجره الشيخ الأديب ابو يحيى العتاد وكان ممن عمر عمراً طويلاً حتى زاد على المائة سنة ، وكان إماماً في اللغة والشعر وروى عنه جملة من أهل فاس وغيرها ، وكان جملة النفقة فيه مال الأحباس المستخرج من الوكلاء عليه ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة وكان له غشاءان أحدهما من جلد معزى والثاني من خيرة كتان يزالا عنه في كل يوم جمعة وذلك في شعبان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة حسبما كتب على ذروته بالعاج .

= مجالسة الجفاة من البرابر والإفرنج، متهمكاً في القروسية وآلاتها إلا أنه تمسك بمن كان يلقبهم أبوه " من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدل وتاريخي وغيرهم " كما يقول ابن بسام : وقررهم على مراتبهم ولم ينقصهم سوى الأختلاط به وحضور مجالس أنسه في جملة خاصته، وكان محباً لإظهار أبهة الملك والتأنق في مراكبه هو واصحابه، يحلي القضة المرصعة بالذهب ، وفيه ميل إلى اللذات ، غزا الإفرنج سبع غزوات ومات في السابعة منها بمنزلة أم هانيء بقرية من أرملاط Guadimellato بعلة الذبحة وقيل مسموماً سنة ٣٩٩ هـ ، قال ابن عميرة : كانت ايامه أعياداً .

انظر المزيد في : جذوة الاقتباس ٢٧١، المغرب ١/ ٢٠٧، الذخيرة م ١ ج ١ ٥٥-٦٦ ، البيان المغرب ٣/٣ ، بغية الملتمس ١٠٦ .

الخطباء والأئمة

بجامـــــع القرويين

والخطـــباء الذيـــن خطـــبوا فيه عند صنعه فى أخر دولة لمتونة وفى الدولة الموحدية وصدر الدولة المرينية أطالها الله تعالى إلى زماننا هذا أولهم الخطيب أبو محمد المهدى بن عيسى وكان من أحسن الناس خُلقاً وخَلقاً وأفصحهم لساناً وأكثرهم بيانـــاً وكـــانت موعظته تؤثر فى القلوب والأخلاق وكان يخطب فى كل يوم جمعة خطـــبة لا تشـــبه أخرى فأقام يخطب مدة خمسة أشهر ثم دخل الموحدون المدينة فصـــرفوه عن الخطبة وقدموا مكانه الفقيه الصالح أبا الحسن بن عطية لأجل حفظه اللسان البربرى لأنهم كانوا لا يقدمون للخطبة والإمامة إلا من كان يحفظ التوحيد باللســـان الـــبربرى فخطـــب به إلى أن توفى فى ثامن ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وخمســـمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الورع أبو محمد يشكر بن موسى الجراوى وهـــو أحـــد أشياخ المغرب فى الدين والفضل والزهد والورع والمجاهدة والتقشف والإيثار والصدقات كثير والقيام بالليل لاسيما فى رمضان قيل له ذات ليـــــلة لـــو روحت نفسك قليلاً وأعطيتها حظها من النوم لكان أرفق لك . فقـــــال : أنما أطلب راحتها فى الآخرة ثم أنشد :

لا تجعلن رمضان شهر فكاهـــــة   تلهيك فيه من الحديث فنونـــه
وأعلم بأنك لا تنال ثوابــــــه   حتى تكون تصومه وتصونـــه

وروى عـــنه أن أحـــد عمال الموحدين بفاس كتب لمراكش أن أبا محمد يشـــكر كان يدعو للخلافة فوصل الخبر بذلك إلى الخليفة فى حال خروجه فبعث

من حينه فأن يشخص وكان من الواقفين بين يديه أحد الصقلب وبيده طبرزين من حديـــد فـــأخذه منه وأمسكه بيده وقال لمن حضر بهذا اقتله فقدر أنه ضرب جبهة نفسه بطرق الطبرزين فأنبعث من الضربة دم كثير فبادر الأطباء بقطع دمه . بجملة من الأدوية وأنواعها فلم ينقطع وكان ممن حضر عند الخليفة أحد الصلحاء فتفرس فى ذلـــك وقـــال للخليفة: إن كنت هممت بسوء فتب منه فتذكر غشسخاص أبى محمد يشكر فتاب من ذلك وبودر برد الذى بعث لاشخاصه فأنقطع الدم من حينه وكان له نفعنا الله به غنم وماشية كثيرة ببلاده التى نشاء بها ورثها عن أبيه ، وكان متصـــدقاً بكثير منها وكان يؤم ولا يخطب لأنه كان أعجمى اللسان شديد العجمة فقـــدم ليـــنوب عنه فى الخطبة خطيباً الفقيه الزاهد أبا عبد الله بن زيادة الله المزنى وانفـــرد بالإمامـــة ثم توفى أبو عبد الله بن زيادة الله فى ثالث وعشرين من جمادى الأولى ســـنة اثنـــتين وسبعين وخمسمائة ، فخطب بعده الفقيه أبو القاسم بن حميد بأســـتخلاف أبى محمـــد يشكر له فى ذلك ، وتوفى أبو القاسم بن حميد يوم الأثنين الرابع عشر لشهر رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الـــورع أبو عمران موسى المعلم لكتاب الله تعالى باستخلاف أبى محمد يشكر له فى ذلك وكان أبو عمران هذا يعلم الصبيان بالمكتب الذى بقنطرة أبى رءوس وكان فى الخطـــبة داخلته دهشة وأطلق صبيانه ثم أخذ فى البكاء والدعاء وقال : اللهم لا تفضحنى بين عبادك يا أرحم اراحمين ولما نادى المؤذن يوم الجمعة لبس أحسن ثيابه، وســـار إلى الجـــامع فقعد فى حجرته حتى خلا الأذان فقام وخطب ولم يتوقف ولم يتلجـــلج ثم دخل المحراب، فأتى بالحكمة وفصل الخطاب فى قراءته فبكى كل من حضـــر فلما تمت الصلاة أقبل الناس إليه يقبلون يديه ويتبركون به ولم يزل خطيباً عـــلى أن وصل الفقيه القاضى أبو محمد عبد الله بن ميمون الهوارى فكان أول سؤاله لأهـــل المدينة عن خطيب جامع القرويين فذكر له فيه خير وأثنى عليه كثيراً ، فلما

جاءت الجمعة راءه فلم تعجبه صورته واستشنعها وقال فيه فولاه فقال له بعض من حضره لو سمعت خطبته لا عجبك فلما سمع خطبته بكى وطلب منه المغفرة والدعاء وكـــان سريع الدمعة كثير الخشوع الغالب عليه فى أحواله الخوف، وتوفى أبو محمد يشكر فى الحادى والعشرين لذى القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وأقام أماماً بجامع القرويين أربعين سنة لم يسه فى ذلك لشدة حضوره فى صلاته ولم يترك عقباً ، وبنو يشكر الذين بفاس الآن ليسوا من عقبه وأنما اشتركوا فى الأسم وأجتمع لأبى عمران الخطبة والإمامة إلى أن توفى فى عشرين من صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة فخطب بعده ولده الفقيه أبو محمد عبد الله وسنة يوم ولى ثمان عشرة سنة وكان له حظ وافر من الجمال والعلم والدين والفضل والورع وحسن الصورة لم يكن لـــه صبوة فى صغره ولم يزل مشتغلاً بطلب العلم منقطعاً للعبادة ولما مرض والـــده أبو عمران قيل له أستخلف ولدك للصلاة فقال أن علم الله فيه خيراً فهو يستخلفه فـــلما تـــوفى أبو عمران وحمل على قبره ووضع على شفيره للصلاة رضى الناس بالـــبكاء وطلب من يصلى عليه ، فقال قاضى البلاد لولده : تقدم فصل على أبيك فتقدم وصلى عليه وأنصرف الناس وقدم فى موضع أبيه وأستحسنه الناس، ولما أتى الناصـــر بـــن المنصور إلى مدينة فاس بعث إليه ليراه فوصل إليه وسلم عليه وبقى يحادثـــه إلى وقـــت الظهـــر ، فقال له قم فصل بنا ثم قال له الناصر من تركت فى موضعك للصلاة بالناس فقال تركت من هو خير منى وهو معلمى الذى قرأت عليه القرآن وذلك لأنه لما وصلنى رسولك تخيرت فى أمر من يتقدم لذلك فقلت لا أعلم مـــتى يكون الرجوع هل بالقرب أو بالبعد ثم تذكرت قول الرسول عليه السلام " مـــولاك مـــن علمك آية من القرآن فأعلمته بالفضية وأستخلفه فى مكانى فقال له الناصـــر جزاك الله خيراً ثم أمره بالأنصراف وأتبعه مملوكاً بجملة ثياب وصرة فيها ألـــف ديـــنار فرجع إلى الناصر وشكره ودعا له وقبل منه الثياب واستعفاه فى أمر

الدنـــانير فأعفاه ولم يزل خطيباً وإماماً إلى أن توفى فى يوم الحادى عشر لرجب سنة إحـــدى عشر وستمائة فخطب بعده الفقيه أبو محمد عبد الله القضاعى المشار إليه بأســـتخلاف وقـــت مرضـــه فأنتقد عليه وطعن الناس فيه أنه يبعث صبيان مكتبه للنساء وطالع فى ذلك من له النظر العام فقال إن الذى قدمه للصلاة أقر بين يدى الناصـــر أمير المؤمنين أنه خير منه فأتركوه على حاله فترك أبو محمد المكتب وصار معتكفاً فى الجامع ويسكن فى الدار الموفقة على أئمة الجامع إلى أن توفى يوم الخميس الثانى والعشرين من رمضان سنة خمس عشرة وستمائة فخطب بعده الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشبلى وكان من أهل العلم والدين والفضل وكان له صـــوت حسن ومعرفة بالأوقاف، توفى سنة تسعة وعشرين وستمائة فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله المدعو بالخطيب توفى سنة خمـــس وثلاثين وستمائة ، فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الورع أبو محمد عبد الغفـــار ستة أشهر وتأخر لنفسه وكان سبب تأخره أن أحد الحساد أشاع عنه أنه يـــنون السلام، فيقول السلام عليكم وبلغه ذلك فأستدعى جماعة من وجوه المدينة وقـــال لهم إنه بلغنى أنه يقول أنى أنون السلام وبالله ما فعلت ذلك قط ولا كنتكم أنظـــروا لأنفسكم من يكون عوضاً عنى وبالله الذى لا أله إلا هو لا تقدمت بأحد أبـــداً فخطب بعده الشيخ الورع أبو الحسن على المعروف بابن الحاج يحكى أنه لما تأخر أبو محمد عبد الغفار رغب الناس فى الشيخ الصالح أبى محمد عبد الله القشتالى أن يـــنظر لهـــم خطيب فوعدهم أن يستخير الله تعالى فى من يصلح لذلك فرأى فى مـــنامه النبى صلى الله عليه وسلم يشير عليه بأبى الحسن المذكور فلما كان الصباح جاء إليه الناس الذين وعدهم ، فقال لهم الشيخ أبو محمد عليكم بابن الحاج فأمتنع ثم رغـــب المـــرة بعد المرة وأمتنع . وقال لا ينبغى أن يكون السكنى عوض الإمامة وتورع عن ذلك ، فقيل له إن لم تسكنها تعطل حبساً المجس لذلك فقال : أمهلونى

لأنظر لنفسى مخرجاً، ثم أجاب لسكناها على أن يكون يخيط حصر الجامع ورأى أن ذلـــك عوضـــاً عن السكنى والله ينفعه بذلك، توفى سنة ثلاث وخمسين وستمائة . فخطب بعده الشيخ الفقيه المشاور الورع أبو عبد الله محمد بن يوسف المزدغى ثم قـــام ولـــده عوضاً عنه ، وكان لما دعى الإمامة استرجع ثلاث مرات ، فقيل له لما ذلـــك ؟ فقال : أنه أخبرنى الشيخ الحافظ المحدث أبو درى الحسنى وأنا أروى عليه كـــتاب الأحكام فى الحديث النبوى يوم توفى الفقيه أبى محمد بن موسى المعلم وولى القضاعى عوضه ونظر إلى ملياً ثم قال لى : يا محمد إنك تلى الإمامة للصلاة بالناس فى جـــامع القـــرويين وذلـــك فى أخر عمرك ، فلما دعيت للإمامة تذكرت مقالة الشـــيخ وعلمت أن أجلى قد قرب، فاسترجعت واقام أبو عبد الله محمد المذدغى إمامـــاً وولده أبو القاسم خطيباً إلى أن توفى أبو عبد الله محمد فى تاسع ربيع الأخر ســـنة خمس وخمسين وستمائة وولى الإمامة بعده الشيخ الفقيه الصالح الزاهد الورع أبـــو الحسن على بن حميد ثم توفى الخطيب أبو القاسم المزدغى المذكور فولى الخطابة الفقيه أبو عبد الله محمد بن زيادة الله المدنى إلى أن توفى وبأثره توفى أيضاً أبو الحسن بن حميد رحمها الله تعالى، فخطب بعدهما بتقديم فقهاء المدينة وأشياخها الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن مشونة وقدم للإمامة الشيخ الفقيه القارئ أبو العباس بن أبى زرع وأقامـــا فى ذلـــك مدة من سبعين يوماً فخطب بعد ذلك الشيخ الفقيه أبو عـــبد الله محمـــد بـــن الإمامة كل ذلك بأمر أمير المؤمنين أبى يعقوب فى سنة تسعة وثمـــانين وستمائة إلى أن توفى فى تاسع ذى القعدة من سنة ثلاث وتسعين وستمائة فخطـــب بعده الفقيه أبو الحسن يحيى بن أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابـــن عمـــران بن الفتوح المزدغى فى يوم الجمعة التاسع عشر لجمادى الأخير سنة أربـــع وتسعين وستمائة وتقدم للإمامة الفقيه المحدث الأصولى أبو العباس أحمد بن راشد العمرانى عن أمر أمير المؤمنين أبى يعقوب رحمه الله فى موفى عشرين من شوال

سنة ست وعشرين وسبعمائة ، فخطب بعده ولده الفقيه المحدث أبو الفضل محمد وكان حسن السمت قليل الضحك مولعاً بقضاء حوائج الناس ممن عرف ومن لا يعرف تارة بنفسه وتارة بماله وتارة برسالته مؤثراً جواداً حتى أنه لايرد سائلاً ولا شاعراً فصده بل يباذر لقضاء حاجته وربما عدله بعض الناس فى ذلك فكان ينشدهم متمثلاً :

لا تقبلن الشعر ثم تُضيعُه فتنام والشعراء غير نيَّام
وأعَلمْ بأنهم إذا لم ينصفوا حكموا لأنفسهم على الحكَّام
وجناية الجانى عليهم تنقضى وعفا بهم يبقى على الآيام

وكان الناس يتوسلون به عند الخلفاء والأمراء وغيرهم فى حوائجهم لمنزلته عندهم وكان كثير تسبباته فى الحراثة والزراعة والغراسة وكسب أموالاً كثيرة وكان كثير الأنباق لنفسه وحاشيته لا سيما فى المواسم والولائم إلى أن ارتكبته ديون كثيرة وغفل عن ضبط ماله والتفقد لا حواله واسترسل بالمسامحة للوكلاء فتعين عليه مال جسيم مبلغه أحد والثلاثون ألف دينار وثلاثمائة دينار كلاهما من الذهب العين من جملتهات ودائع كانت بيده ولم يبلغ ما ألفى بيده وقدره من الأملاك والرباع وغير ذلك عند طلب الناس أموالهم وقيامهم عليه حاشى عشرة ألف دينار وخمسمائة دينار من الفضة أقتسمها الغرماء حسب ديونهم . ولما سمع أمير المسلمين أبو الحسن رحمه الله عند تحققه بذلك صرفه عن الخطبة والإمامة ورأى أن ذلك مما يفدح فيه وأنفذ أمره بصرفه فرفع له هذه الأبيات :

أمولاى يا فخر الملوك ومن له مزايا على كل الملوك الأكابر

أما إن تحنَّ أو ترحّم شـــأفتى [1] وحبك ثاو فى الحشا والضمائر
وحّبك [2] فى قلبى إليك مجـــدَّد لذا كل باد فى الأنام وحاضـــر
فكيف يضيع الحب يانور ناظرى وأنت إمام ذو[3] العلا والمآثـــر
فكيف يكون المرء أعنى جيبكم [4] مضاهاً مهاناً فى القرى والحواضر
وقد قال أهل العلمُ طّرابفاســـنـــا بأن الذى قد كان ليس بضائـــر
وغاية ما قد عددوه [5] صغائـــر ولا[6]فرح فيمن قدأتى بالصغائر
أأبعَدُ عنكم دون فعـــــل كبيرة وأمنع قهراً من سعود المنابـــــر
ولو كنت يا مولاى أعلم أن مـــن رقى منبراً مثلى يكون مناظرى
لما طمحت نفسى لشىء من العلا والزمتها هون [7] الصفوف الأواخر

ولمـــا وقف عليها السلطان قدم على صرفه وكتب الأمر بذلك لمدينة فاس مـــن منصورة تلمسان فى الثالث عشر شعبان سنة ست وأربعين وسبعمائة ووقف الأمير أبو الحسن رحمه الله على قصيدة من نظمه كان اراد رفعها المقامة العلى حين غلـــبه الدين يستنجده ويعينه فى دينه فخجل من ذلك وأجرى له جراية مبلغها مائة

---

(١) وردت فى الأصـــــل شاختى .
(٢) وردت فى الأصـــــل حسب .
(٣) وردت فى الأصـــــل ذى .
(٤) وردت فى الأصـــــل عبيدك .
(٥) وردت فى الأصـــــل عددوها .
(٦) وردت فى الأصـــــل فـــدح .
(٧) وردت فى الأصـــــل بين الصواب فى المتن .

دينار وخمسون ديناراً فضه كل شهر على أن توفى فى عقب شوال سنة ثمان واربعين وسبعمائة ومن القصيدة :

مالى سوى المقتدى بالكتب والرسل ... بعد الالاه أمير المسلمين على
مالى سواه لما أرجوه من مقر ... مالى سواه لنيل السؤل والأمل
نجل الخليفة عثمان الذى وضحت ... منه المعالى وضوحاً غير محتمل
أعنى أبا حسن قطب الملوك ومن ... أحيى الخلافة فى علم وفى عمل
عز الملوك إذا خطب ألمّ بعهم ... غيث العفاة أمان الخائف الوجل
بحرا السماحة فياض للـوارده ... عذب ويرويك فى نبل وفى نهل
ينسيك يوم هياج الحرب عمرهم ... عند الطعان وما عمرو بمحتمل
ماضى العزائم فرد فى شجاعته ... يوفر على كل ذى وصف وذى مثل

ونقل مثل هذا أنما هو ليكثر الشاعر على القناعة وليذكر المغرور ويعتبر الغافل فخطب بعده الفقيه التالى لكتاب الله تعالى أبو محمد عبد الله الجنيارى كان رحمه الله كثير الصوم وقدمه لذلك أبو الحسن أمير المسلمين رحمه الله إلى أن توفى يوم الخميس السادس لشهر جمادى الأولى من أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسى بتقديم مولانا أبى عنان رحمه الله بعد الاستخارة والنظر والإصلاح للمسلمين وقبل التقديم بعد أن أبدأ لنفسه أعذاراً لم يسمح له فيها للمصالحة التى غلبت على أعذاره وفرح الناس بتقديمه له وشكروه على اعتنائه بالأمور الدينية وبعث له فى أول خطبة خطبها كسوة سنية على برنوص وبدن كلاهما أبيضان من صوف وأحزام للتردية وجندان للتعميم ودراعتين من ثوب الرصان وقبطية شراشية العمل ، قال الرسول الذى حملها له أن قيمتها أزيد من مائة دينار من الذهب ولما وصلته خجل من ذلك وقال أن هذه الكسوة لا تصلح لمثلى وفيما على من اللباس

كفايـــة وفهـــم منه طلب المعافاة فى قبولها . فقال له الرسول : أنت من أهل العلم وعندك وجوه لأخذها وأنما قصد مرسلها ومهديها التنوية بأهل العلم مثلك ليمتاز أهـــل الخطـــط من غيرهم وليعلم الناس بتقديمه لك وبما فى الهدية من التودد فقبلها وشكر عليها ودعا له بصلاح الأحوال ثم لبسها فى حال خطبته الأولى ثم وهبها بعد ذلـــك لمـــن يستحقها من كرماء البلد، وأقتصر على عادته فى لباسه ولم يزل عنده محمولاً على المبرة والاكرام مقضى الحوائج على الدوام وخطب نائباً لاعذار أبداها الشيخ القاضى الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن الحاج ابنى الحسن على بن عبد الـــرزاق الجزولى وما زال أبو الحجاج يوسف يعتذر على القيام بها إلى أن أستبدلها لـــلقيام بذلك الفقيه أبو عبد الله بن على المذكور واقام خطيباً إلى أن أختل حفظه وظهـــر عجزه من الخطبة، فخطب بعده الفقيه الأعدل الصـــالح أبو محمد عبد الله ابـــن الخطيـــب أبى محمد عبد الواحد ابن الخطيب أبى عبد الله محمد بن ابى الصبر بـــتعيين أبى عـــنان رحمه الله تعالى لذلك فى يوم عجز من ذكرو ذلك يوم الجمعة الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة. وتوفى الفقيه أبو عبد الله ابـــن على عبد الرزاق المذكور فى يوم الأحد الرابع لذى القعدة سنة ثمان وخمسين وســـبعمائة وبقى الصالح أبو الحجاج إماماً إلى أن مرض وعجز عن القيام بالإمامة فقـــدم ولـــده الشاب الصالح الولى الوريع أبا الربيع سليمان نائباً عنه فى ذلك بعد أبائـــه مـــنه ثم أجـــاب فى يوم الأربعاء الثامن عشر لرمضان سنة ستين وسبعمائة وأستمر الاستنابة إلى أن توفى والده المذكور فى يوم الأحد الثالث عشر لشعبان سنة إحدى وستين وسبعمائة واستقل ولده أبو الربيع بالإمامة وظهر عنه خبر واستقامة ثم تأخـــــــر من تلقاء نفسه نفع الله به لأمر ظهر له فى ذلك، وأجتمع لأبى محمد عبد الله الصبر المذكور والخطبة والإمامة فى أواخر عام ستة وستين وسبعمائة .

ما زيد من البنـــاء
فى الجامع

ومـــن الـــزيادات فى الجامع المذكور الباب الأكبر الغربى الذى بسماط الموثقـــين بـــنى من مال الأحباس فى أيام الفقيه القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى الســـبتى سنة خمس وخمسمائة كذا قاله صاحب المقياس ثم صنع بخارجة قبة الجص المقربسة التى عليها الآن الغربية الصناعة سنة سبع عشرة وستمائة على الخطيب أبى عبد الله بن موسى المعلم قاله صاحب الأنيس . والباب الأكبر المعروف الآن بباب الشماعين بنى من مال الأحباس فى أيام القاضى أبى عبد الله محمد بن داود سنة ثمان عشـــرة وخمســـمائة كذا كتب فى قبة الجص التى بداخله وصنع مرتفعاً واسعاً على صـــفة الباب القريب منه المذكور أيضاً وركب عليه مصراعان عظيمان قد حسنت فأعدتـــاه عـــلى مـــا هو الآن عليه وحين حفر أساس هذا اللباب وجد على يسار الداخل منه حيث هى الدكانة الآن بناء مغبى قدر أنه كتر فهدم بعض الأقباء فوجد تحـــته صهريج طوله ثمانية أشبار وعرضه كذلك وقية ماء معين وبالصهريج سلحفاة قـــد ملاتـــه وأختلفوا فى إخراجها ثم رأوا أن يشاوروا فى ذلك فقهاء فاس فأشاروا بتركها فى موضعها وأن يعاد الأقباء عليها كما كان ، وهذه الفتوى لا تصلح والله أعـــلم لأن السلحفاة إن كانت فيها الحياة ولا يجوز أن يبنى عليها وإن كانت ميتة فـــلا يجـــوز أيضاً بناء المسجد على الميتة اللهم إلا أن يكون ذلك الماء وغذاء لهما وليـــس فى البناء عليها تعريب لها فلا يمنع البناء عليها وأيضاً فقد كان من تقدم ربما جـــرب غـــير مامرة وقوع الضرر لمن يريد إخراجها من موضعها . أما لكونه جناً عامراً أو غير ذلك والله أعلم .

ولما تم بناء هذا الباب عمل بأعلاه قبتان ، أحداهما من الجص بداخله، وعملت القبة الثانية من خشب الأرز بخارجه، ثم اضطرمت نار من جهة باب السلسلة وأحرقت ما مرت عليه من الأسواق إلى أن وصلت قبة الخشب المذكورة فأحرقتها، وذلك فى شهر جمادى الأخيرة سنة إحدى وسبعين خمسمائة ثم حدد خارج الباب والقبة التى أحرقت وصنعت القبة من الجص على نحو ما فى الآن على يد أحد عمال الموحدين فى سنة ستمائة كذا كتب فيها وكان الأتفاق فى ذلك من بيت المال . وفى أيام القاضى أبى عبد الله محمد بن داود زيد فى الصحن بلاطان من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية كذلك وفرش الصحن فى أيامه حسبما ذكره صاحب المقياس ومن الأنيس : أن الصحن كانت فيه قعرات يحتبس فيها الماء فتطوع العريف المشعر أبو عبد الله محمد بن أحمد صخر بفرشه من ماله . وكان له أربع من الدور موروثة عن أبيه فباعها وأنفقها فيما يحتاج إليه من أجور وجير وغيره وتولى فرشه بيده ولم يأخذ فى ذلك كله من أحد شيئاً وقال : أنما ابتغيت بذلك وجه الله تعالى وهو الفرش الذى به الآن . وفى طوله من شرق إلى غرب مائتا صف وثلاثة وأربعون صفاً، فى كل صف مائتا أرجورة وثمان عشرة أجورة فيصبح فى تكسيره ثلاث وخمسون ألف أجورة وثمان عشرة أجورة غير ست وعشرين أجورة. وفى طوله أيضاً من الأشباره مائة واثنين وثمانون شبراً . وفى عرضه خمسة وعشرون شبراً ومما زاده القاضى محمد بن داود بصحن الجامع المذكور فعل له مظلاً من سقف كتان تنتشر عليه كل يوم جمعة فى زمن الصيف يحجب بها الشمس عن المصلين المتآخرين عن الرواح لبعد المنازل الذين لايجدون محيصاً عنه لتضايق الجامع وجعل فى اطنابه سلسلتان تجريان فى بكر موثقة بالرفود الدائرة على جوانب الصحن ترتفع بها المظل مدة الحاجة إليه ثم أنه يحط ويزول ويحذف إلى وقت الحاجة إليه . أيضاً وجعل فى مواضعه فرجا يتنفس منه الهواء وبقى كذلك أعواماً إلى أن

تمزقت وأهمل النظر فيه وبكره ظاهرة إلى الآن كذا نقله صاحب الأنيس وقد أنشد فى معنى ذلك :

تفسحت الدنيا بعد لك فى الورى وفسحت لما ضاق للخلق جامعاً
شكى صحنه شمس الظهيرة ضاحيا فاطللته ظلا على الوهج دافعـاً

ولما كثرت العمارة بالمدينة فى أيام أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين [1] وضاق الجامع بكثرة المصلين إلى أن كانوا يصلون بالشوارع والأسواق. أجتمع فقهاء المدينة وأشياخها ورفع ذلك للقاضى أبى محمد عبد الحق ابن عبد الله بن معيشة الغرناطى سنة تسع وعشرين وخمسمائة ودالوا له كيف

---

(١) هو على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى أبو الحسن أمير المسلمين بمراكش وثانى ملوك دولة الملثمين المرابطين ولد بسبتة سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤ م وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ بعهد منه ، بمراكش . قال السلاوى: ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه ، لأن البلاد كانت ساكنة والأموال وافرة والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة، وسلك طريقة أبيه فى جميع أموره . وقال ابن خلكان : كان حليماً وقوراً صالحاً عادلاً ، ومن أعماله أنه جاز إلى الأندلس سنة ٥٠٣ هـ ، مجاهداً فعبر البحر من سبتة فى جيوش تزيد على مائة ألف فارس. فانتهى إلى قرطبة ثم فتح مدينة طلاموت ومجريط ووادى الحجارة و٢٧ حصناً من أعمال طليطلة . وعاد وكانت له بعد ذلك معارك مع الفرنج حالفه فيها الظفر. وفى أيامه ظهر محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى (ابن تومرت) فعجز على عن دفع فتنته واضطربت أموره فمات غماً فى مراكش سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م ولم يشهر خبر موته إلا بعد ثلاثة أشهر منه . ومدة خلافته ٣٦ سنة و٧ أشهر . انظر المزيد فى : الاستقصا ١/ ١٢٣ – ١٢٦ ، الحلل الموشية ٦١ – ٩٠ ، الحلل ٥٣ ، جذوة الاقتباس ٢٩١ .

تصح الزيادة فيه وبينوا له وجوها فى الإعانة على بنائه وعلموه أن كثيراً من أوقاف المساجد عند كثير من أهل فاس قد أدخلوها فى منافعهم وحسبوها من أموالهم وأنها تقوم بالنفقة بالزيادة المذكورة فشاورا فى ذلك الخليفة على بن يوسف وأعلموا أن ذلك من عمل رفع الدين والتوسعة للمصلين لا سيما فى يوم الجمعة الذى فى أعياد المسلمين فأذن للقاضى وتوجه الطلب على النظراء والوكلاء فى ذلك ومحاسبتهم فذكر أن الذى أبرزته المحاسبة ثمانون ألف دينار فضة ثم أمرنى شراء الأملاك التى كانت بقبلة الجامع فأشتراها بأحسن شراء قيل إن أكثرها كانت لليهود لعنهم الله وكان أعلمهم أن من الفقه إذا ذاق الجامع فأن جيرانه يجبرون على بيع ما يحتاج إليه منها فأجابوا لذلك وحين كمل الشراء أراد أن يهدمه ويبيع ما لا يحتاج إليه من نفضه فأجتمع ذلك أزيد المشارات به ثم أخذ فى البناء فتمادى البناء فى هذه الزيادة فكملت عشر بلاطات من صحنة إلى قبلته وأخذ فى عمل القبة التى بأعلى المحراب وما يحاديها من وسط البلاطين المتصل بهما فعل ذلك بالجص المفريس الفاخر الصنعة والنقش فيه على المحراب ودائر القبلة التى عليه ورفش ذلك كله بورقة الذهب والأزورد وأصناق الأصبغة وركب فى الشماشات التى بجونب القبة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد ثم أخذ فى تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن وأمر بعمل المنبر الذى به الآن على نحو ما ذكر قبل من أجل أن الذى كان قبله قد درس وقد ذكرناه ثم بدأ العمل فى بناء مقدم القبة حيث يدخل على مصلى الجنائز فعزل القاضى ولم يتم ما أراده وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وتقدم غيره ولم يشرع فى شىء من ذلك وبقى على حاله إلى أن ولى قضاء المدينة الشيخ الفقيه أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ويذكر أن النقش والتذهيب الذى كان بأعلا المحراب ودائر القبة التى عليها غطى ذلك

كلـــه بالكاغيد وعمل عليه الجص حين عزم الخليفة عبد المؤمن بن على الدخول لفاس والصلاة فى الجامع المذكور لأن كان ذلك مشغلاً للمصلين . ويذكر أيضاً أن الـــتراب والكدان الذى بنى به هذه الزيادة كان يخرج ذلك من كهف عميق تحت هذه البلاطات الثلاث والكهف الآن فى باب مطيق بالقطعة التى بين المحراب والباب المـــدرج المحدث هناك . وأما الماء الذى صرف فى ذلك فكان يسقى من البئر الذى بصحنه كل ذلك تحرياً من الشبهات كذا نقل صاحب المقياس وصاحب الأنيس .

الثريـــا الكبرى

وأمـــا الثريا الكبرى فأنها كانت بموضعها قبل عملها به ثريا مثلها فى الحزم فدثـــرت وتكســـرت، وصـــنعت هذه فى أيام الفقيه الخطيب أبى محمد عبد الله بن موسى المعلم رحمه الله تعالى، وكان الإنفاق عليها سبعمائة دينار وسبعة عشر ديناراً وخمس دينار من الدنانير الفضة ، كل ذلك من أحباس الجامع . وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن ، وفى زنة هذه الثريا سبعة عشر قنطاراً وربع قنطار وفى دورها أثنان وثلاثون شبرا وعدد مراكير قناديلها خمسمائة وعشرون والذى يملأ فوارير سرجها من الزيت خمس قلل وكانت تارة تسرج كلها فى ليالى رمضان وتارة لا تسرج إلى أن ولى الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى الصبر قضاء المدينة فرأى أنه أسرجت كل ليـــلة من رمضان قد يكون ذلك سرفاً فى مال الجامع وإن لم تسرج قد يكون ذلك تضـــيعاً لمـــا أريد بها فأقتضى نظره بعد أن استشار أمير المسلمين مولانا أبا يعقوب وأفضـــى إليه أمرها فأمره أن يأخذ فى ذلك بالوسط من الأمور وأن تسرج كلها فى طـــول ليلة السابع والعشرين من رمضان ويسرج بعضها فى سائر ليالى العام فدام العمل على ذلك إلى الآن وأنشد فى ذلك :

تحكى الثريَّا الثريَّا فى تألفهـــــا وقد لواها نسين وهى تَتَّقـــــد
كأنها لذوى الإيمان أفئـــــدة من التخشع جوف الليل ترتعد

وكـــان الأســـتاذ المزيانى رحمه الله جالساً تحت هذه الثريا فى ليلة السابع والعشـــرين ومعه الأستاذ ابن عبدون الأديب رحمه الله ومالك بن المرحل ومحمد بن خلف فأنشد الأستاذ ارتجالاً :

انظر إلى ثرية نورهـــا يصـــــدع با للألاء سجف الغســـــق

فقال ابن عبدون :

كأنها فى شكلها ربـــــــوة انتظم النور بها فاتســـــق

وقال ابن المرحـــل :

أعيذها من شر ما يتقـــــــى وفجأة العين برب الفلـــــق

وقال ابن خلـــف :

باهى بها الإسلام مـــا أشرفت كأساتها عند مغيب الشـــفق

ومما قيل فى السروج :

انظر إلى سروج فى الليل مشرفة من الزجاج حولها وهى تلتهب
كأنها ألسن الحيات بـــــارزة عند الهجير فما تنفك تضطرب

المســـــتودع

وأمـــا المســـتودع الذى به الآن فأنه عمل فى أيام الفقيه الصالح ابى محمد يشكر ليوضع فيه مال الجامع وأوقافه ، وكان الناظر فى أيام بنائه الفقيه أبو الفقيه أبو القاسم بن أحمد وبناه بعد أن حفره فأعدته إلى أن وصل للأرض الصحيحة ثم بلط ذلط بالرمل والجير والجص وحصن داخله وسقفه بخشب الأرز عمل له خمس مناقيس بصفائح من حديد مقلوبة وبابان أحدهما محدد كل ذلك على الوجه المحكم والعمل الوثيق وجعل لكل باب منها ثلاثة مفاتيح وجعل داخله صناديق كبار عليها أقفـــال وثيقة ثم وضع فيه أوقاف الجامع وأمانات الناس . وكان الأنفاق عليها من مـــال الأجاس فأحتيل عليه فى أيام الفقيه أبى عبد الله محمد بن عمران وسرق منه مال ، وأجتهد فى البحث عن ذلك فلم يجد خبزاً .

البيلة والخصة ودار الوضوء

وأمـــا البيـــلة والخصة ودار الوضوء وآحداث البناء الذى فى توسيع باب الحفاة وتجديدها وفتح الباب المقابل لفندق ابن حيون من الجهة الشرقية فإن ذلك كله فى أيام الفقيه الصالح أبى يشكر.

يحكـــى أنـــه قدم إليه رجل من باى يازغة يعرف بموسى بن عبد الله بن ســـدات كان له مال كثير واستوطن مدينة فاس ولزم محبة الشيخ أبى محمد يشكر وذكـــر له أن بيده مالاً طيباً ورثه عن ابيه وأن أباه اكتسبه من حراثه بيده فى أرضه ومـــن ماســـية تولـــدت عنده ويريد أن يصرفه فيما يحتاج إليه فى جامع القرويين فـــتوقف الشيخ أبو محمد يشكر إلى أن ينظر فى ذلك وصار يلح عليه فى أن يعمل

دار وضوء بقرب الجامع المذكور لتكون عوناً للمصلين فلما رأى غرمه وتوسم فيه الخير حملة على الجامع وأوقفه بين المنبر والمحراب واستحلفه أن ذلك المال طيب فحلف له ثم قال له : اشرع الآن فيما اردت والله ينفعك بمقصودك فعمد إلى فندق كان فى موضع دار الوضوء فأشتراه وشرع فى نقضه ثم بحث عن موضع يجلب له الماء لذلك فأعلم بمواضع شتى استشار فيها أهل المعرفة والنظر فلم يروا له اصلح من عين بدويرة بحرنيز وتعرف العين بعين فرمال .

ومنها إلى الجامع خمسمائة ذراع فأشترى ذلك بأضعاف القيمة حرصاً على مراده ثم رغب من الشيخ أبى محمد أن يعلم بذلك الأمير الناصر الموحدى ويستأذنه فى أن يجلب هذا الماء حيث يباح له من الشوارع فأجابه إلى ذلك وأعلم به الناصر فأسعفه فى مطلبه وشرع فى بناء دار الوضوء وجعل له خمسة أعشر بيتاً ولكل بيت مصراعان وفوق سقف كل بيت طاق لدخول الوضوء وأخرى فوق بابه وعلق فى كل طاقة من طيقان أبوابها صبحية من الزجاج تسرج فى أول الليل وأخره وفى كل بيت أنبوبه من نحاس ينصب منه الماء فى نفير محفور من حجر طوله شبران وعرضه شبر. وفى سمكها قبة من جص مقربشة العمل مرقشة بأنواع الأصبغة وعلق فى وسطها ثرياولها فوارير زجاج تسرج فى أول الليل وأخره أيضاً وأدار من الجهة القبلية والشرقية والجوفية أحد عشر طاقاً لدخول الضوء بجميعها وجعل بوسطها بيلة من الحجر الأحمر طولها عشرون ....[1] وبجوانبها ثقباً من نحاس مموهة بالذهب ينصب منها الماء للبيلة ملعباً وينحدر منها الماء المستعمل فى الوضوء ....[2] دائر كل ذلك من الرخام الأبيض وحمل على بعضها للقيام بها

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) بياض فى الأصل .

وقصد إلى العين المذكورة فوجدها تنفجر من قوارتين فى حجر صلد يجتمع الماء منها فى بيـــت مقبو كبيت الحمام وجعل بازائه صهريجاً مربعاً طول كل جهة منه عشرة أشبار مملساً بالرصاص يطر فيه الماء الخارج من البيت ثم أخرجه منه على شباك من رصاص شبه الشهدة إلى قواديس من رصاص سعتها أكثر من شبر ثم مر بالقواديس مـــنها إلى عقبة الملاحين إلى مسجد الشرفاء إلى سماط القيسارية إلى سوق الحرارين عـــلى ســـوق الفـــرافين إلى المعدة التى بالحانوت المتصلة بالبيلة المذكورة والسقاية المتصـــلة بهـــا وللبيلة التى بباب الحفاة المغشية بالرصاص، وطول هذه البيلة سبعة وعشـــرون شبرا وهى متصلة بخارج الباب وقد عمل عليها اشباك من خشب وفتح فيـــه اربـــع خوخات وارتفاع هذا الباب ستة عشر شبرا وقد فرش فى أيام الفقيه القاضـــى أبى عبد الله محمد بن أبى الصبر بالرخام الأبيض والأكحل ويتدفق الماء من جهة المعدة المذكور إلى هذه البيلة المغشية بالرصاص ثم ينصب منها الماء على رخام أبيـــض وأزرق وأحمر يغسل فيه الحفاة أرجلهم ثم يغور الماء فى قناة معدة لذلك ثم قدم لعمل البيلة والخصة التى بالصحن رجل من سجلماسة يعرف بالفقيه أبى الحسن ابن عبد الله السلجماسى وكان من أهل الإيثار والدين صنعهما لـــــه أبو عمران موسى بن حسن بن أبى شامة وكان من أهل المعرفة بالبناء والهندسة بعد أن استشار فى ذلك الفقيه الصالح أبى محمد يشكر فأسعف فى ذلك وعمل البيلة وما حولها من الرخام الأبيض وجعل طولها أثنى عشر شبراً وأرتفاعها ستة أشبار وسعتها نحو ثلاثة أشـــبار وعمقهـــا كذلك وجعل مما يقابل الواقف إليها وعن يمينه وشماله ألواحاً من الرصاص وادار بذلك تكفيف الرخام وجعل على ذلك مما يقابل الواقف شباكاً من الـــرخام الأبيـــض من مائة وأربعة وعشرين خاتماً وكتب تحته فى حجر منقوش بخط بـــــارع :

بسم الله الرحمن الرحيم * وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما * ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَـاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [1] كمل فى شهر جمادى الأخيرة سنة تسع وتسعين وخمسمائة وجعل تحت ذلك فى ألواح الرخام خمسة أنابيب يصب منها الماء فى البيلة المذكورة أى الشرقية وينصرف للخصة القريبة منها من جهة غربيها قد عملت من طاقتين فى دور كل واحدة منهما ثلاثة عشر شبراً قامت على ساق مقسوم على نصفين كل ذلك من النحاس الأصفر ثم يصعد الماء المنحدر من البيلة فى النصف من الساق يغور فى وسطها من ثمانية أثقاب بجوانب خرشقة من نحاس مموهة بالذهب ثم يغور منها الماء بعد أمتلائها فى أثقاب معدة لذلك بجوانبها ويجتمع فى النصف الثانى من الساق فلا تزال البيلة والخصة مملوتين يفضى منهما المارب للمصلين والعاكفين والواردين وشربهم متى احتاجوا فى ليلهم ونهارهم وهذه فضيلة تكرر على الدوام لهذا الجامع ولمن سعى فى ذلك وأعان عليه من خلفاء الإسلام ثم ينحدر ماء الخصة فى قادوس إلى الميضات التى بعين فرفق بالجهة القبلية من الجامع المذكور.

وأما العيزة التى به الآن فأنها صنعت حين كان الفقيه أبو عبد الله بن ابى الصبر ناظراً فى أحباس المسلمين وعلى جامع القرويين .

ومن فوائدها انفق فيها ذلك سنة ثمان وثمانين وستمائة وفيها غرابة الصنعة ونفاسة الخشب وإتقان الإلصاق ودقة الخرط والنقش ما يقضى بالعجب ويصح بالمجاز ومما أصلح فيه الحائط الشرقى مع سقف البلاطتين المتصلتين به وذلك فى أيام مولانا أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أبى يوسف رحمه الله تعالى سنة أثنتين

---

[1] سورة البقرة الآية ٧٤ .

وثمانين وستمائة ونفق فيه من مال الجزية والأعشار وأصلح فيه ايضاً الحائط الجوفى من حد الساباط الفاصل بينه وبين الدار الموقوفة لسكنى أئمة المسجد إلى حد باب السفر الذى هناك وذلك فى أيام أمير المسلمين مولانا أبى يعقوب رحمه الله وانفق عليه خلخال ذهب صار له من مال دخائر الروم وكان إصلاحه على يد قاضيه بالمدينة الفقيه ابى غالب ابن القاضى أبى عبد الرحمن المغيلى وذلك فى سنة ست وتسعين وستمائة ، ومما أحدث فيه الباب المدرج الذى بقبلته وذلك أن الوالى بالمدينة ابا الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الحدودى تأمل الباب المدرج الذى بنى فى أيام الناصر الموحدى بجوفى جامع الأندلس وأراد أن يفخم أمر جامع القرويين ويصنع له هذا الباب ليكون مماثلاً للباب المذكور فبناه على هيئته الآن ، وصنع أسفله نفيراً من الخشب مملس بالرصاص وجلب له الماء من عيون ابن الصاوى المعروفة الآن بعيون الكرازين ليدخل عليه الحفاة وغيرهم وعمل عليه شباكاً من خشب الارز بباب يدخل إليه من اراد الصعود إلى أدراجه وصنع بأعلاه الأدراج باباً عظيماً وصنع عن يمين الخارج من أسفل الأدراج سقاية ونمقها بالجص والزلات والحجر المنحور وأنواع الصبغة كل ذلك بصناعة محكمة ظريفة العمل وجلب إليها الماء من الموضع المذكور ويذكر أنه انفق فى ذلك من مستغلاته سنة أثنتين وتسعين وستمائة وأراد أن يعلم بذلك أمير المسلمين أنه أحدث فى الجامع مالا يحتاج إليه بغير إذن فأمر أمير المسلمين بغلفة على أن ينظر فى أمره فغفل عن ذلك. فلم يزل البا مغلقاً إلى الآن . ومما أحدث فيه الأمير ابو حفص رحمه الله ابن مولانا أمير المؤمنين أبى سعيد أن يجعل فى الجهة الغربية من الجامع تسع من الطبقات لزيادة الضوء فى تلك الجهة وأمر أن تجعل على المحراب مقصورة وشرع الصناع فى عملها وأنشئت من ثلاثة أجناب من خشب الأرز بصناعة النقاشين ارتفاع كل جانب منها تسعة أشبار وطول الأوسط منها ثلاثون شبرا وهو الذى صنع فيه الباب

وطـــول كـــل واحد من الأخرين خمسة وعشرون شبراً ثم أن الناس ظهر لهم أن فى ذلـــك مضـــرة بإنقطاع الصفوف وميلولتهم عن الإمام وغير ذلك فرفعوا الأمر فى ذلك لفقائهم فلقوا الأمير المذكور وبينوا له ما ظهر للناس من الضرر وقالوا له مع ذلـــك أمـــوراً مصلحية فرجع عن عمله ثم وضعت فى جهة من جهات الجامع وهو الآن يـــلفق الـــباب المدرج المغلق وكان عمله فى سنة أثنتى عشرة وسبعمائة وكان الانفـــاق فيـــه من مال الأحباس على يد الناظر فيها أبى عبد الله محمد بن ميمون وكـــان الأمـــير أبـــو الحسن رحمه الله اراد أن يجعل بهذه الأضباب مقصورة بجامع القصبة من فاس لصغر التى به وخدمها ولعله أنسى ذلك والله أعلم .

الناقـــوس الكبير

وأمـــا الـــناقوس الكبير المعلق بالبلاط الأوسط المقابل لباب الكتبيين فهو الـــذى ألقى بجبل الفتح من بر الأندلس لما إفتتحه المسلمون على يد الأمير الأسعاد الشهير بأبى مالك عبد الواحد بن امير المسلمين أبى الحسن رحمه الله تعالى وزنة هذا الـــناقوس فـــيما قاله عز الدين بن جلبون عشرة قناطير . ولما وصل لفاس أمر أمير المؤمـــنين أبـــو الحسن أن يعلق هناك بعد أن يعمل فى جوانبه أجناح قائمة متفرقة ليـــبقى ظاهراً ويعمل عليها مراكز لقوارير الزجاج التى تسرج فيه وبأسفله أوصال مبـــلغها أثـــنى عشر تحت كل وصل منها بلور مكفف . وفى وسط ذلك طبق شبة الخاتم .... [1] عن الأوصال .

---

[1] بيـــــاض فى الأصـــــــل .

وفى أسفل حروف الطبق بناديق مخروطة ونطاق ممدود فى جوفه كل ذلك من النحاس الأصفر المنقوش المخدوم بصناعة محكمة وكتب على النطاق ما نصه : { الحمد لله وحده ، أمر بتعليق هذا الناقوس المبارك أمير المسلمين وناصر الدين أبو الحسن ابن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين " أبى سعيد أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين " أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق " } أيد الله سلطانهم وأسعد عصرهم وزمانهم وهو الناقوس الملقى بجبل الفتح حرسه الله أفتتحه بعون الله وتأييده أمير المسلمين أبو الحسن أيده الله ونصره على يد ولده الأمير الأسعد أبى مالك ومولانا أيده الله ونصره محاصراً مدينة سجلماسة ، وكان أفتتاح الجبل المذكور فى يوم الأحد الخامس لشهر شوال المبارك من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وفى أثناء عمل الناقوس عمل له قبة من الجص متقنة العمل وعلق بها فى منتصف شوال سنة سبع وثلاثين وكان الإنفاق فيه من مال الأحباس على يد الناظر فيها أحمد بن الأشقر الصنهاجى .

الخزانـــــــة

وأمـــا خزانة الكتب التى يدخل إليها من أعلى المستودع الذى بها فأنه لما كـــان من رأى أبى عنان رحمه الله تعالى حب العلم وإيثاره والاهتمام به والرغبة فى انتشـــاره والاعتـــناء بأهله ومتحمليه والتودد لقرائه ومتحليه انتدب لصنع هذه الخـــزانة وأوسع على طلبه العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من عـــلوم الأبـــدان والأديان والسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتـــنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى وعين لها فـــيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن لـــه رغبة أخرى له على ذلك جراية مابدة تكرمه وعناية وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وسبعمائة.

وأمـــا خزانة المصاحف التى أمر بها مولانا أمير المؤمنين أبى عنان رحمه الله تعـــالى فى قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع أنشىء على حسنها مالم يسبقه إليها أحـــد مـــن أئمة هذه الاصقاع فأنه رحمه الله تعالى صورها فى ذهنه الثاقب المبير ثم أبـــرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين فأبدأ من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهل بها على الناس تلاوة القرآن فى كل وقت من الأزمان وأعد فيها جملة كـــثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن اراد التلاوة فيهـــا بعـــد أن كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مر الأعوام والليالى والأيـــام ونجـــز لها من قيد لاخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردها لصيانها فى موضعها وإحرازها وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى أن يـــرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وأجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية وكتب فوق هذه الخزانة ما نصه:

{ الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله أمره وأعز نصره } بتاريخ شهر شوال سنة خمسين وسبعمائة رزقنا الله خيرها .

زاوية القـــراء

وأمـــا زاويـــة القراء البهية التى أمر بها مولانا المستعين رحمه الله فى شرقى هـــذا الجامع مسافتها على ساباط هنالك وجعل لقبليها وجوفها من صناعة الخرط والـــتزيين بالأصـــبغة مـــا يهيم به المار والسالك ورتب فيها قراءين يتلون القرآن ويجـــتهدون بطـــول الســـبعة أيام ، وعلى مر الأزمان وأجرى جراية فى كل شهر يشـــفعون فيها ومرتبون لذلك بسببها وثم عملها فى أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

أبواب الجـــامع

ولهذا الجامع من الأبواب بين صغار وكبار ثمانية عشر بابا منها فى الجانب الغـــربى بـــاب مجلس القضاة ومصلى الجنائز وباب الصفر المعروف بباب القطاعين وبـــاب الأوليـــاء سمـــى بذلـــك لكثرة من يدخله من العباد وباب الكتبيين وباب الشماعين الذى سعته سنة عشر شبرا وارتفاعه أربع وعشرون شبراً وباب المؤقتين المقـــابل لـــتربيعة الزافين وسعته وأرتفاعه مثل الذى قبله . وفى الجانب الجوفى باب الحفاة المقابل لدار الوضوء القديمة وباب الصفر المعروف بباب العميان سمى بذلك لكثرة ملازمتهم للقعود فيه يمثلون للناس وباب بيت النساء الأصفر بمؤخر الصحن

وباب خصة المقابل لمدرسة الرخام وباب بيت النساء أيضاً الذى بأسفل السباط الفاصل بين الجامع ودار الخلافة .

فى الجانب الشرقى الباب المقابل لطائفة من فندق ابن ميمون ويعرف بباب ابن عمر سمى باسم النجار الذى صنعه وهو المحدث فى أيام أبى محمد يشكر والباب المقـابل لدرب ابن حيون والباب المقابل لدار الخصة التى من أحباس الجامع وباب المدرج الغريب المقابل لدرب السبع لويات ويتصل بزاوية القراء .

وفى الجـانب القبـلى الباب المدرج المحدث على يد الحدودى المغلق الآن والباب الأصغر الذى يدخل إليه رائفة ابن الفرديس .... [1] هناك لمن يدخل مستتراً عـن أعـين الناس للخصومات والإيمان وغير ذلك وبين مجلس القضاء والصـحن الصغير والزاوية التى هناك بمقدم القبلة بابان فاصلان بذلك وبين مقدم الصحن والدارين المذكورين وقبلة الجامع خمسة أبواب.

فـالأول : الذى يدخله الخلفاء لشهود صلاة الجمعة عن يسار المحراب ، وبـاب موضع المنبر وثلاث مشارع لها أغلاق تنطوى عند فتحها من عمل جيد وصناعة غريبة ، والباب الأول من هذه الثلاثة القريب من المنبر منه يخرج الخطيب لـلجمعة ومـنه يتوجه للصلاة على الجنائز ومنه للمقام المعلم للجنائز التى تكون هناك.

---

(1) بيـاض فى الأصـل .

سوارى
وسقوف وما أشبه ذلك

وعـــدد سواريها الحاملة لسقوفه ثلاثمائة سارية منها عشر من حجر ملون غريب الخلقة والمشترك من جملتها اثنتان وثلاثون وساترها يدار عليها ومن الاتفاق الغـــريب فى هـــذه السوارى أن الثلاث منها عن يمين الواقف مستقبلاً تحت الثريا الكبرى يبصر من دار بها جميع أبواب الجامع التى بداخله وطوله من شرق إلى غرب الـــثلاثمائة وثمانون شبراً ومن مقدم القبلة إلى الجوف ثلاثمائة شبر بعد تكسير مساقة المقدم المذكور وعدد بلاطاته إحدى وعشرون من شرق إلى غرب وسبعة عشر من مقدم القبلة إلى الجوف مع الصحن الأكبر الذى طوله من شرق إلى غرب مائة شبر وثلاثـــة وتســـعون شبراً وعرضه من قبله إلى جوف خمسة وسبعون شبراً وبلاطاته المســـقفة أحد عشر بلاطاً والخاسرتان ومساحة جميعه ثلاثة مراجع وثلاثة أرباع من المـــرجع السلجماسية ويملاه من المصلين ثلاثة عشر الفاً على أن يكون فى البلاط الواحـــد سبعمائة وخمسة وستون شخصياً اساطين البلاطات مائة وخمسون شخصياً بعـــد حط مواضع السوارى وعدد ثرياته التى توقد بها المصابيح مائة وثلاثون ثرية جميعها من النحاس مختلفة الألوان والصناعات والأشكال والهيئات منها عشر معلقة فى الـــبلاط الأوسط ، وفى الثريات يندرج العشرة نواقيس المكفنة بالنحاس والباقى الـــثريات وذلك مائة وعشرون معلقة فى ساترة وزعموا أن فيها من مراكز السرج ألفـــان اثـــنان يوقد بعضها فى سائر ليالى السنة ويكثر منها فى ليالى رمضان ويوقد جميعها فى ليلة السابع والعشرين وعدد صبحات الزجاج التى توقد فيه أيضاً بطول ليـــالى الســـنة سبعون العارفات، منها خمسون وساترها ثلاث وبلديات وعمل فى خارجه بدائرة حريمه فى مواضع معروفة أربعون سراجاً يهتدى بها المارون فى دربه ،

وقـــد أعد لخدمة ذلك كله على الكمال ونادى الأمير بحكم ذلك وأجرى له جراية مـــن فوائـــد أحباســـه وينـــبغى أن تكثر سرجه وتغاظ فتائلها إذا أكثر ماله فإن الاستضـــاءة بهـــا أنســـاً للمجتهدين ونفياً لمكان الريب ومبلغ غلات أوقافه على أخـــتلافها فى بعـــض الأعوام عشرة آلاف فضية ومن جملتها الفندق الكبير الشهير الـــذى بسوق الشماعيين المحبس عليه من قبل مولانا أمير المسلمين أبى يعقوب رحمه الله تعـــالى وكان سبب تحبيسه أنـــــــه كان من جملة المستخلص لجانب الخلايف وقد أهمـــل.

فأما فى أيام ولاية أبى عبد الله الحدودى بفاس أمره القاضى الفقيه محمد بن أبى الصبر ببنائه وإصلاحه فتوقف فى ذلك وأراد أن يكون بإذن من الخليفة فأشهد القاضـــى على نفسه شهوداً أنه لم يوقف له فى المحاسبة وإلا فهو الملتزم لما اتفق فيه فبـــناه الحدودى على ما هو الآن عليه تحت نظر أبى عبد الله بن أبى الصبر ثم أعلم بذلـــك الخليفة أبـــا يعقوب فسأل الحدودى عن ذلك فأعتذر له وبين له ما التزمه أبو عبد الله بن أبى الصبر فأغاض لذلك الخليفة وأمر باشخاصه وبعث غليه الحشم قوماً بعد قوم وخيف من ذلك عليه .

فـــلما جـــاء القاضى مر فى أثناء ذلك على الروضة التى دفن فيها الإمام الحافظ أبو بكر بن العربى رضى الله عنه وإذا بفقير خارج منها ومخاطب أبى عبد الله ابـــن أبى الصبر وقال له : قل بحق لطفك بلطيف صنعك وجميل سترك دخلت فى كـــنفك تشـــفعت بنبيك فحفظ ذلك ودخل على الخليفة وهو يذكر هذه الألفاظ فـــأقعده بازائه وأظهر له الإكرام والإعتناء به ثم سأله عن سبب أمر للحدودى فى الفـــندق فقال له أمرته بذلك لأنه غلب على ظنى أنك تحبسه على جامع القرويين فأستحسن ذلك وشكره وأشهد فى الحين بتحبيسه كذا كان يتكرر ذلك النقل عن أبى عبد الله بن أبى زرع وغيره وصارت هذه الألفاظ التى دعا بها وكان تحبيس هذا

الفندق بسببها عند الناس كنزاً جامعاً وحرزاً نافعاً يتوسلون بها إلى الله فى حوائجهم وظهرت عجائبها لكثير من الناس فى مطالبهم ويذكر أن الرجل الذى لقنها إليه هو سيدنا الخضر عليه السلام .

وعدد المؤذنين والقومة فى غالب الأوقاف اربعون شخصياً ، ولهم على ذلك فوائد مختلفة على مر الأعوام .

وأما قراءة الحزب فيه بعد صلاة الصبح والمغرب فأنه كان أمر به يوسف ابن عبد المؤمن بن على فى سائر بلاده كذا نقله ابن صاحب الصلاة وأنتدب لذلك ناس وأستمر إلى إياله مولانا أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله فأنه أجرى جراية لعشرة اشخاص من القراء، وأمر بذلك فى سائر جوامع بلاده .

وأما قراء الكتب فيه الاستماع الناس بعد الفراغ من قراءة حزب الصبح فإن بعض أئمة الجامع فى أول إيالة بنى مرين أعزهم الله كثيراً ما يقرءون بين يديه فى أول النهار تفسير القرآن للثعلبى رحمه الله تعالى وحلية الأولياء .... [1] وذلك فى جهة خاصة منه وكان له قارئ محسن مجيد لذلك وكان يحضر له بعض الناس وكانوا يجلسون متفرقين حلقاً حلقاً ربما يأخذون فى أمور الدنيا إلى أن تطلع الشمس فينصرفون فاشار هذا الإمام على القارىء المذكور أن يتصدر حزب الحراب فى الوقت المذكور ويقرىء هنالك من هذه الكتب فصولاً لاستماع الناس فأجتمع إليه سائر من كان يجلس به وأنتفع الناس بذلك كثيراً وربما أجتمع فى المجلس آلاف من الناس وذلك سنة إحدى وخمسين وستمائة . وأعلم بذلك من كان إذ ذاك من خلفائهم فأستحسنه وأجرى للقارئ جراية فأستمر ذلك إلى الآن. ومما جرى فى انتصاب قبلته فيما حكى أن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب

---

[1] بياض فى الأصل .

العـــالمين أبا يوسف بن عبد الحق رحمه الله تعالى لما أمر ببناء المدرسة اليعقوبية التى بقبلـــته سنة سبعين وستمائة ، وكان الذى انفرد لنصب قبلتها المعدل أبو عبد الله محمـــد بن الحباك، ولم يشاركه فى ذلك غيره من أهل علم الهيئة ، وظهر أنها منحرفة عـــن قبـــلة جامع القرويين ، أنهى الأمر فى ذلك لمولانا أمير المسلمين أبى يوسف ، وقـــال بعـــض مـــن حضره ممن لا يحسن السؤال والجواب فى ذلك، أن فى بعض المساجد فاس أنحراف بعضها عن بعض فرأى رحمه الله أن جمع الفقهاء المذكورين فى أهل زناتة للنظر فى ذلك .

يحكـــى أنهم قالوا : أن جامع القرويين نصبت قبلته على سمت القبلة التى نصبها الرجل الصالح مولانا إدريس بن غلريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن ابى طالب رضى الله عنه ومر على ذلك منون من السنين .

وقد صلى إليه جماعات من العلماء والصلحاء والقضاء وأمراء العدل ممن يقتدى بأقوالهم وأفعالهم وممن لا يحل لأحد أن يظن بهم إلا خيراً ، فلم يغيروا ذلك وما حرفوه وما يظهر فى بعضها من الإنحراف عن بعض قد يقرب من الصواب على رأى من يرى أن المطلوب من قبلة سائر الأفاق إنما هو الجهة لمكة شرفها الله تعالى ، والجهـــة فى ذلـــك حاصـــلة وهذا القول هو الراجح وإلا فكيف يقدر على تعبير السمت أعنى سمت البيت بل غاية ما عند الناس فى الآفاق الغائبة عن مكة شرفها الله تعالى المحافظة على جهة البيت لا سمته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ما بين المشرق والمغرب قبلة» [1] فأقر ذلـــك كلـــه عـــلى حال رحمه الله تعالى ، وقد سلم هذا الجامع المبارك من البدع

---

[1] رواه الترمذى والنسائى .

القبيحة ولم يتعرض فيه لما تعرض له فى بعض الجوامع ومما ظهرت فيه بدع فأن الله سبحانه يلهم من يزيلها فيزيلها .

وجرى فى أول سنة تسع وأربعين وسبعمائة أن بعض المجودين لقراءة القرآن إن كان يقعد بين يديه الأحداث من الصبيان لتجويد القراءة، فيجتمع إليه الناس إلى أن حدثت فتن بسبب ذلك فرفع ذلك الشيخ الفقيه الصالح المدرس أبي فارس عبد العزيز بن محمد القروى رحمه الله تعالى ، فأشار على بعض من له الحكم النافذ أن يشتّد فى تغيير ذلك ويمنعه كل المنع ، فمنعهم وفرق جمعهم لما رأى أن هذا الصبي القارئ بين يدى هذا الشخص ، ليس ممن يقصد التعليم وليس جلوسه كجلوس المتعلمين، أمر بإقامته عملاً على ما فى المعونة وغيرها من إقامة الذى يجلس فى المسجد يوم الخميس أو غيره لقراءة ونظم ذلك الشيخ الأستاذ المقرى أبو الحسن بن سبع رحمه الله تعالى قصيدة قرئت على الشيخ أبي فارس المذكور فكانت سبباً فى اشتداده على قيام هذا القارئ وهى هذه :

ألا حقّقوا عنى مقالا هو الجدّ ... لمنهاج أهل الحق يسعده القصد
أقول احتساباً ليس منى تعصبا ... على أحد ممن ينظمه العقد
ذووا العلم فى الأقراء ضاعت صفاقم ... ولم يبق منهم غير ما وسمه يبدو
رياء وعجب وانتصاب وشهرة ... وتسميع من يرجى بتسميعه رفد
ألم ترفَاس الغرب أعظم بقدرها ... وجامعها العظمى التى لها تعتّد
لنفع عبادة وتوسيع موطن ... جميع رجال الله يأتونها وفد
فلا بدع فيها ولا منكر لها ... وابوابها إن فتحت فلها السدّ
تبرز للإقراء فيها جماعة ... ولا خبرة تبدو لديهم ولا تعدو
سوق نغم يبدونها بتحيّر ... وتغريب الحان لمن راح أو يغدو

فبعضهم فى جمعة وخميســـــها يُجمّع حفلا ليس يحضرها العدّ
وعن مثل هذا حذّر الحبر مالك وقال لمن يديه فى المسجد الطردُ
وبعض بتلميذ له حسن صـــورة شباب له صوت لنيل الهوى رصَدُ
كأقراص نحل قد ملئن بسّـــمها فباطنها حتف وظاهرها شهـــدُ
فيقعد أمًّا لا صقا جنبه وأمُّـــا أماماً بارزاً للورَى يشـــــدُو
يعظُمه بالقرب منـــه مكانُــــه وذلك عند الله جـــل أسمه بُعْدُ
ويعقبه جزء من الوعظ رافعـــا به صوته كيما القلوب له تغدُو
يردده والحفل غصّ بأهــــله برفع وحطّ هاكذاالصدر والوردُ
وجلّ كتاب الله عن حاله الغنــا وتطريب أصوات بها يقع الوجد
ولهذا لعمر الله أكبر بدعـــــه يقابلها المنع المبّرح والــــردّ
لفاعلها لعن وتغليظ زاجـــــر وأيضاً وعيد فى القيامة لا وعد
وما هذا آثار قوم تقدمــــــوا من أهل كتاب الله أفناهم الجهدُ
فقد عرفوا عند النهار بصومهم وفى ليلهم ايضاً الفهم الســـهدُ
مضت بهم الأعصار يبكى لفقدهم فيا أسفا إدخل بى عنهم الفقـــد
مضى سلف الأخيار أكرم بقدرهم وأعقبهم قوم قد ابتدعوا نكـــدُ
وليس لهم فهم به يتدبَّـــــــر معانى كتاب الله إذ منه يهتدوا
جميع علوم الخلق منه تفــرعت وكل حدود الله فهو له حـــدٌ
أو أمرنا والنهى قد وضحت بـــه ولا كن عين الجهل عن ذاك تنسدّا
وقد حرمت فيه الفواحش كلهـــا سوا ظهرت أوابطنت حالها فردا
وقد جاء فى الإخلاص فيه أوامـــر وذم رياء الناس جاء به الســـرُد
وفى صحبة الأحداث ما ليس يُحتفى من الذم إذ فى فعله عُدمَ الحمدُ
فخالطهم فى دينه سوف يرتــــد ولو بعد حين إذ شياطنهم جندُ

ولا تصلـــح الصبيان إلا لمكتب ... وليس لهم فى موطن غيره رشدُ
فعمر بن يوَحَنـــا ومُدرك عبرة ... فبعدا لذا منها عُرىَ المنع تشتدُّ
بها تضرب الأمثال فأحذر سلوكها ... طريقته حتى بغيك اللحـــدُ
فكم من جليل القدر قد حظ قدره ... ورفعته لمّا تلاقته المـــردُ
فإن تقبلوا نصحى فأنى نصحتكم ... ونفسى قد اوصيتها ذاك لاتعدُّو
فمن كان ذا نصح لعلم يُقـــره ... بإخلاص تقوى الله يعقبه الرشد

وقال الإمام الشاطبى وهذا بأبياته التى مطلعها .

خذوا النظم عنى وانظروا منه سرةُ ... فلا يخشى فى اللحن عمر ولازيد
وإنى لأهل العلم والدين خـــادم ... نعم وأشهدوا أنى لجملتهم عبدُ
فهم عمدتى فالله ينفعنى بهـــم ... وتشملنى البشرى من الله والسعدُ
وأما رعاع الناس من كل مـــدَّع ... فليس له قيل لدَّى ولا بعـــدُ
وليس على الأعمال منهم طلاوة ... متبحة منها الصحائف تســود
لهم مثل ما قالوا كذا هو عندنـــا ... ومن أنتم حتى يكون لكم عبدُ

ومدرك المشار إليه فى هذه الأبيات هو الذى أنشد الرجز المشهود فى شأن عمر بن يوحنا النصرانى ولولا ما التزمناه من ستر الحجابات ودفن السقات لشرحنا أمرهما والله يعصمنا من الفتن والزلات فمن الرجز قوله :

من عاشـــق نـــاد هواه دان ... ناطق دمع صامتُ اللســـان
موثق قلب مطلق الجثـــمان ... معذب بالصدَّ والهجـــران
من غير ذنب كسبت يـــداه ... غير هوى نمت به عينـــاه
شوقاً إلى رؤية من أشـــقاه ... كأنه عفاه من أضنـــاه
ياليتنى كنتُ له زنَّـــارا ... يدير نى فى الحضـــر حيث داراً

وهـــذا الجامع المبارك قد يشكو بلسان حاله فى بعض الأزمان عند أهماله وذلك أن الذين أسسوه وزادوا فيه الزيادات ورتبوه وحبسوا له الأوقاف وعظموه ومـــنعوا الســـرق وحددوه وإنما فعلوا ذلك بنية صالحة وعزمات ناجحة وإنما لكل أمرى ما نوى ، فينبغى أن يسلك فيه طريق الأولين ويتبع فيه سبيل المؤمنين والقيام بالمســـاجد ركـــن من أركان الدين وطهارتها ونظافتها شرط فى صلاة المصلين وهى بيـــوت الله أن ترفع وتظهر للقائمين والعاكفين واركع وأجوال الدنيا فيها ممنوع وأعمـــال الأتية الأخراوية فيها مشروع والصلاة هى أول ما ينظر فيها من أعمال العبيد.

فأما القرب من الل بقبولها أو الطرد والردَّ بردها فرحم أمراً وأفنى أمرها وأدَّى الأمانة التى طوفها وضبط أحوالها ونمى أموالها وأخذه من حله بعد الاجتهاد وصـــرفه فى مواضـــعه بالنظر الدينى ووجه السداد وازال ما يكون من ضرر فيها واستقصـــى أمورها حتى يستوفيها فذلك يكون ممن رفع قدرها وأستوجب أجرها ومهما اسصبحها الاهمال والاعراض شكت غذ ذاك بلسان الحال لربها .

روى أن مســـجداً مـــن المســـاجد ارتفع إلى السماء شاكياً إلى الله بأهله لعملهم أعمال الدنيا فأستقبلته الملائكة وقالوا بعثنا بهلاكهم .

حكـــى معـــناه الإمـــام الطرطوشى رحمه الله فى كتابه المسمى بالنهى عن الحـــوادث والـــبدع الذى فى تواليفه وحملنى ذلك على سرد هذه الفصول لتكون تنـــبيها لمن ولى أمرها من الغافلين وإيقاظهم من السنات عسى الله أن ينفعنى وأياهم فى الحية وبعد الممات .

بناء جامع الأندلس

فلنرجع إلى بناء جامع الأندلس وأنما بناء بناء جامع الأندلس فأن الذين أعتنوا بتاريخ فاس ذكروا أنه أبتدى البناء فيه سنة خمس وأربعين ومائتين على يد مريم بنت محمد بن عبد الله الفهرى بعد أن أشترت أرضه بوجه صحيح وأنفقت فى ذلك كله من مالها الموروث عن أبيها وسمى بذلك لأن الإمام إدريس بن إدريس لما وفد عليه وقد فروا من جزيرة الأندلس أنزلهم بالعدوة الشرقية من فاس فسميت لذلك بعدوة الأندلس فلما أسس جامعها وكان ممن أعان فى بنائه جملة من الأندلسيين الساكنين هناك سمى الجامع بهم .

وقال البكرى[1] فى مسالكه أنه من ست بلاطات وله حصن صغير به أصول جوز وغيره من الأشجار وسقاية غزيرة الماء تعرف بسقاية مصمودة .

ويذكر أن أحد أعمال الناصر لدين الله المروانى حين تغلب على بعض بلاد المغرب زاد فيه زيادات من جملتها الصومعة التى فيه وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب فى عتبة بابها ونقلت الخطبة إليه من جامع الأشياخ على يد حامد بن حمدان الهمدانى عامل عبيد الله الشيعى حين تغلب على فاس سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وكان أول خطيب خطب به الفقيه الصالح أبو الحسن بن محمد الصدفى فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن زيدت فيه الزيادة المشار إليها على يد عامل الناصر لدين الله ولم يزل أيضاً كذلك إلى أن أفضى للناصر

---

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى أبو عبيد مؤرخ جغرافى ، ثقة علامة بالأدب ، له معرفة بالبنيات . مات سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .
انظر المزيد فى : الصلة لابن بشكوال ٢٨٢ ، طبقات الأطباء ٢/ ٥٢ ، بغية الوعاة ٢٨٥ ، آداب اللغة ٣/ ٨٤ .

الموحدى سنة ستمائة أنه يحتاج إلى الإصلاح والبناء فأمر ببناء الباب الكبير الجوفى الذى به الدرج وسعته عشرون شبرا وأرتفعه سبعة وعشرون شبراً وأدراجه أربعة عشـــر درجـــة وبأسفل إدارجه شباك من خشب الأرز فيه ثلاثة أبواب فى الأوسط بيـــلة مـــن الحجر الأصفر ينفجر بها الماء من وادى مصمودة الذى يمر بأسفل هذا الـــباب الأكبر ليغسل الخفاة بها أقدامهم وصنع بأعلا هذا الباب قبتان أحدهما من جـــص مقوبســـة من داخله ، والثانية من خشب الأرز من خارجة وكان بها طلسم للخطاف لا يدخلها ولا يمر بها ولا يعشش فيها وتعطل فى سنة عشرين وسبعمائة.

وأمـــر أمير المسلمين الناصر أيضاً ببناء سقاية ومدخل لبيت صلاة النساء وعـــليها مصـــرية لأئمـــة الجامع وذلك عن يمين الخارج من الباب المدرج المذكور بالقـــرب مـــن ذلك دار الوضوء تحاكى التى بجامع القرويين وخصتها أمر بعملها الســـيد أبـــو ذكريا ء يحيى نجل خلفاء الموحدين وأنفق فيها من ماله ولم يزل الجامع كذلـــك إلى أن أعتلت سقفه وجملة سواريه فأنهى خطيبه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمـــد بن أبى القاسم بن حسونه فأمر هذا الجامع لأمير المسلمين مولانا أبى يعقوب رحمه الله فأمر بإصلاحه وذلك على ماهو عليه الآن فى سنة خمس وتسعين وستمائة.

وكـــان الناصر الموحدى قد جلب الماء له بعين خارج باب الحديد فأعتدل فى مواضع وجلب له الماء من وادى مصمودة إلى إيالة أمير المسلمين أبى ثابت فأمر بجـــلب المـــاء له من العين التى بخارج باب الحديد وببناء السقاية الغربية من جوفه وذلك سنة سبع وسبعمائة .

وعـــدد بلاطاته من شرق إلى غرب خمسة عشر بلاطاً ومن قبلته إلى جوفه ثلاثـــة عشر بلاطاً . وفى قدم منكبه المرتفع مقدار بلاطاً بعد تعديل أنحرافه بالمساحة وفى طوـــله على هذا من قبله إلى جوف مائتا شبر وعرضه كذلك فيكون فى البلاط الواحـــد وأســـاطينه من أشخاص المصلين ثلاثمائة شخص فعدد ما يملاه من المصلين

عـــلى هـــذا أربعة آلاف شخص ومائتا شخص بعد حط مواضع السوارى وعدد سواريه مائة سارية وأربع وثلاثون سارية .

وأمـــا صـــومعته فى كل وجه منها ستة عشر شبراً وفيها من الأدراج أربع وسبعون درجة وأرتفاعها سبعون شبراً فيما ذكر .

وفى أعلى هذه الصومعة قبة لجلوس لتداول الأذان وعدد المؤذنين والقومة فى هـــذا الجـــامع المـــبارك عشرون شخصاً ولهم على ذلك عوائد وفوائد معلومة عـــندهم، وقد عمل فى أعلى هذه الصومعة صارى من خشب ينشر فيه علم أبيض فى أوقـــات صـــلاة الـــنهار وفنار مسرج فى أوقات صلاة الليل فى أول إيالة مولانا المـــتوكل أبى عنان ، رحمه الله والمؤذنون فى هذه الصومعة يفتضون ف أذانهم بأذان أهـــل جـــامع القـــرويين عـــلى العادة القديمة المتداولة الآن وعدد ثرياته الكبرى والصـــغرى إحـــدى وستون ثريا الكبار منها خمس قد علقت بالبلاط الأوسط منه وبقيـــتها فى ســـائر الجامع فى مواضع معلومة منه ، وفيه من الصبحيات العرافيات خمس بقرب محاربة وثلاثون بسائره وفى فرش صحنه من الأجر من شرق إلى غرب مائـــة صـــف وأثنان وثلاثون صفاً فى كل صف مائتا أجورة وله من الأبواب تسعة فمن الجانب الغربى ثلاثة ومن الجوفى الباب المدرج المذكور . ومن الجانب الشرقى خمسة منها أثنان يدخل منهما الماء المقدم الجامع الذى سصلى فيه على الجنائز وبين مقدم الجامع وبيته الأعظم بابان مدرجان أحدهما عن يسار المحراب لدخول الخلفاء مهمـــا أرادوا وشـــهود صلاة الجمعة، والثانى عن يمين المحراب والمنبر ومنه يخرج الخطيب ومنه يتوجه لصلاة على الجنائز .

وكـــان جملة من الفقهاء يدرسون العلم فى مواضع من هذا الجامع وكانوا أهـــل الشورى ممن يقتدى بهم يقصدهم الناس من أقطار البلاد فمن متجرد لتلاوة القـــرآن . ومن مدرس ومن طالب لما شاء من فنون العلم فى مجالس شتى وكان فيه

أيضـــاً جمـــلة مـــن الصلحاء والعباد يلتزمونه قد تفرقوا للعبادة بعد تحصيل العلم ويقصـــدهم الـــناس للفتوى وطلب العلم والتماس الدعاء كالفقيه الولى الصالح الورع حبر الله بن القاسم الأندلسى نزل عدوة الأندلس من فاس ، وهو ممن أدخل علم مالك إليها وهو من مشاهير فقهائها ومتقدميهم ، لقى أصبغ بن الفرج[1] وسمع منه كذا قال صاحب المدارك حدث عنه أن رجلاً رأى فى النوم كان قائلاً يقول له إن شـــئت أن تـــرى نظير معاذ بن جبل فصل فى الجانب الغربى من جامع الأندلس فـــالذى يدخـــل وعليه برنس وصفته كذا وكذا هو ذلك ففعل ارجل فإذا بجبر الله القاسم رضى الله عنه على الصفة الذى ذكر له القائل فى النوم وهو ممن لحق دراس ابن إسماعيل ويذكر أن دراساً رحمه الله لما قدم بكتاب محمد بن المواز ، قال له جبر الله مـــا الـــذى جئت به فأخبره بالكتاب المذكور فقال له أذكر منه فجعل دراس يذكـــر المسائل وجعل جبر الله يجيبه بما حفظ ومالم يحفظ فاسه على أصول مذهب مـــالك رحمه الله فما خالف كتاب محمد بن المواز إلا فى مسئلة الثور إذا اشتراه فى أول الدراس ولم يشرط أنه دراس فوجده لا يدرس فهل هو عيب يرد به أم كذا ؟ المفيد بخط الفقيه أبى عبد الله محمد ابن القاضى أبى العباس أحمد بن ميمون القشتالى رحمـــه الله تعالى وكان يلتزم هذا الجامع المبارك وولى القضاء بعدوة الأندلس الفقيه الصـــالح الولى أبو محمد عبد الله بن محسود الهوارى قدم من مدينة ياوربة ونزل فى جهـــة بـــاب بنى مسافر عن عدوة فاس الأندلس وكان رحمه الله عدلاً فى آحكامه ورعاً فى جميع أحواله رحل إلالقيروان ، وله محمد بن أبى زيد رضى الله عنه وشاهد تأليفـــه النوادر وكان يعدَّ من رجال المدونة ثم ولى القضاء بمدينة فاس كما ذكر

---

(١) هو أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع فقيه من كبار المالكية ، قال ابن الماجشون : ما أخرجت مصر مثل أصبغ وكان كاتب ابن وهب وله تصانيف مات سنة ٢٢٥ هـ . انظر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ٧٩ ، خطط مبارك ٦/ ٣٠ .

وكان رجلاً مثلاً من الدنيا مجتهداً فى الآحكام أقام الحدود كلها قتل وصلب وقطع الأيدى وأقام اللعان وغير ذلك .

ولما وفى رحمه الله طلب فى فاس من يعامله فى شئ فلم يوجد له معامل فبحث عن ممنه وزيته من أين كان يشتريه فوجد له صاحب بمكناسة الزيتون يشترى له بها الزيت والسمن ويبعثه إليه ويأتيه قوته من القمح من هوارة وزوجته تغزل كسوته ، من الثياب القطنية رضى الله عنه وقبره بخارج باب الجيسة فى أسفل الموضع المعروف بالقية له كرامات يطول ذكرها والدعاء عند قبره مستجاب .

وقصدنا بهذه الحكايات وأمثالها البركة فى سرد أقوالها وجاء نزوله الرحمة عند ذكرهم وذكر أمثالهم فأنه قال سفيان بن عيينة[1] رضى الله عنه عند ذكر الصالحين تنزل الرحمات .

وقال بعض المشايخ حكايات الصالحين جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه وشاهد قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [2] وما أحسن قول القائل :

أحب الصالحين ولست منهم ... وأرجو أن أنال بهم شفاعة

وأبغض من بضاعته المعاصى ... وإن كنا شركاء فى البضاعة

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى أبو محمد الكوفى الأعور ، أحد أئمة الإسلام . روى عن عمرو بن دينار والزهرى وزياد بن علاقة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر وخلق . وعنه الشافعى وابن المدينى وابن معين وابن راهوية والقلاس. مات سنة ١٩٨ هـ . قال الشافعى : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز .

(٢) سورة هود الآية ١٢٠ .

وهـــذا انـــتهى القول فيما قيدته واله سبحانه ينفع بما قصدته ونويته أنى لســـت من أهل التأليف ولا من أهل المعروفة بالتصنيف لكن إذا صير النبت رعى الهشـــيم لعمـــر أبيك ما نسب الصلا إلى كرم وفى الدنيا كريم ولا كن البلاد إذا قشـــعوت وطرح نبتها وعن الهشيم فمن نقل ما قاله الناس فما عليه من بأس فمن وجـــد فى هـــذا الـــتقييد خطأ فليصلح أو زلا لا فليمح فالعصمة من الخطأ متعذة وأوقـــات البحث غير مستحضرة والأمر كله لله ولا حول ولا قوة إلا بالله والحمد لله الـــذى هداتا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هداتا الله وحسبنا الله وكفى وسلام عـــلى عـــباده الذين صطفى وصلى على سيدنا ومولاتا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أثيراً يرد عليه بكرة وأصيلاً . انتهى *

---

* هـــذا آخر الكتاب .